الدكتور محمد الجوادي

جماليات الشعر والرحلة

في كتابة تاريخنا

دار الروضة

جماليات الشعر والرحلة
في كتابة تاريخنا

الدّكتور محمّد الجوّادي

جماليّات الشّعر والرّحلة
في كتابة تاريخنا

دار الروضة
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

2020 - 1442

ISBN 978-625-7682-17-6

هذا الكتاب

يرنو هذا الكتاب إلى أن يستعرض صورتين من الصور المهمة في تسجيل الانطباعات العقلية والنفسية عن وقائع التاريخ التي يعيشها صاحب الموهبة ويرى أن من واجبه أو أن من حقه أن يسجل رؤيته لها لاجئا إلى طريقة من طرق التعبير القادرة على نقل مشاعره بالتعبير أو قدراته في التصوير.

نعلم أن هذين الميدانين الذي نقدم نماذج معدودة منهما يرتبطان بآفاق لا نهائية التفسير من سيكولوجية الإبداع الفني من ناحية، ومن جدلية التاريخ مع الفن والأدب من ناحية أخرى ، لكننا نحاول أن نمس هاتين المنطقتين مسا رقيقاً لا يخلو بالطبع من أن يشجع المتلقي على النظر بعين الاهتمام وبذائقة التأمل إلى ما تمثله متعة النصوص الشعرية، وذكريات الرحلات من مشروعات واعدة بمصادر ثرية لكتابة التاريخ على نحو ما عاشه معاصروه بعيداً عن طريقة التسجيل الحرفي ، وبعيداً أيضاً عن طريقة التصوير المنهجي.

ومع أننا كنا أمام طيف واسع من قصائد الشعراء وذكريات الرحلات، مما تناولناه أو عرضنا له بطريقة أو أخرى في كتاباتنا السابقة والممتدة بإذن الله ، فإننا آثرنا فيما يتعلق بالشعر أن نأخذ عينة ذات ملامح معينة ومحددة سلفا على نحو ما تقول لغة العلم ، فاخترنا ست قصائد للشاعر علي الجارم ثلاثا منها في الحديث عن الزعماء، وثلاثا منها في الحديث عن الملوك واخترنا قصيدة سابعة للشاعر أحمد الكاشف في مدح السلطان العثماني عبد الحميد الثاني .

و على سبيل القطع فقد عانينا الصعوبات التفاضلية حين قررنا أن نقتصر في هذا الكتاب على ست قصائد للجارم مع أننا تناولنا أكثر من عشرين من قصائده بالتحليل والعرض في مقالاتنا وكتبنا ، من دون تكرار، وعلى سبيل المثال قد اخترنا قصائد الجارم الثلاثة في الملوك العلويين من بين مجموعة كبيرة من القصائد التي كانت الأسرة العلوية موضوعا لها ، وقد وجدنا أن هذا الاختيار بالذات للأب (إبراهيم باشا)

والابن (الخديو إسماعيل) والحفيد (الملك فؤاد) كفيل بأن يصور ملامح تطور أداء نظام عائلة حاكمة لمهمة الحكم على نحو ما تسيطر عليه بالطبع بصيرة الحكام أنفسهم (محدودة كانت أم ثاقبة) وإن لم يعنوا بتأصيل رؤاهم أو الحديث الجاد عنها ، فقد كان إبراهيم باشا على سبيل المثال يؤمن بالتوسع ، وكان الخديو إسماعيل يؤمن بالتحديث، وكان الملك فؤاد يؤمن بالتأسيس.

أما قصائد الشاعر على الجارم الثلاث في الزعماء الثلاثة فتعكس بأمانة و دقة مشاعر الشعب والنخبة جميعا عند وفاة الزعيم سعد زغلول باشا ، ومشاعر النخبة الحزبية الدستورية عند وفاة محمد محمود باشا لكنها تقف بالزهو والفرحة منتصبة ومنشية مع إتمام الزعيم مصطفى النحاس باشا لمعاهدة ١٩٣٦، وما تلاها من اتفاقية إنهاء الامتيازات الأجنبية .

وعلى قدر ما كانت خمس من قصائد الجارم التي اخترناها في حاجة إلى كثير من تفسير مغازيها ومعانيها فإن قصيدته في تحية النحاس باشا تبدو ناطقة نطقا مبينا لا يرقى إليه توصيف أو تفصيل أو تبيين ولهذا يرانا القارئ وقد أسرعنا في عرضها إذا ما قورن عرضنا لها بما فعلناه في قصائد الجارم الخمسة الأخرى، أو في قصيدة الشاعر أحمد الكاشف في السلطان عبد الحميد الثاني وهي قصيدة جيدة الصياغة والسبك و الأسر ، مشبوبة بالعاطفة، ناطقة بالحب والولاء للإسلام ودولته التي كانت تواجه بالانتصار تحديات متآمرة .

وفي مقابل هذا فإننا اخترنا ثلاثة نماذج للرحلات في أسلوبها القديم في أخريات القرن التاسع عشر و أول القرن العشرين ، تمثل أول هذه النماذج في بعض كتابات الأستاذ محمد ثابت رائد أدب الرحلات ، وتمثل ثانيها في أول رحلة مصورة عن الحج والأماكن المقدسة وهي الرحلة التي سجلها إبراهيم باشا رفعت بالفوتوجرافيا في كتابه الباهر والمبهر في زمانه. وتمثل ثالثها فيما رواه ولي العد الشهير الأمير محمد علي توفيق عن رحلاته مستعينا بمن ساعده في كتابة ما كتبه.

والحق أن كتب الرحلات التي نتناولها في هذا الكتاب تضم تعبيرا يقظا و واعيا عن حالة نضج فكري تستحق نظرة تاريخية منصفة ، ولم لا ، وهي تقدم آمالاً في المستقبل واعتزازاً بالماضي على نحو غير مسبوق، وتحفل بما تمتاز به نظرات

العيون اليقظة التي كتبتها من التعبير الصادق عن المقارنة الواعية الصدرة عن الانتماء الأصيل للحضارة العربية الإسلامية وشعائرها وأمجادها وعن حب لأبنائها وماضيها و مستقبلها.

وعلى الرغم مما يبدو من ضيق النافذة التي ينظر منها كتابنا هذا ، والتي اقتصرت على شاعرين وثلاثة من أصحاب الرحلات ، فإننا نستطيع القول بأننا وجدنا فيما استعرضناه من النصوص كثيراً من المعاني التي يمكن وصفها بأنها المعاني المفتاحية الكفيلة بأن تدلنا على أن في التاريخ كثيراً بل كثيرا جدا مما لا يمكن أن يُكتب إلا بالشعر أو بالرحلة، حين يمكن لتيار الوعي الباطن أن يعبر عن نفسه من دون وجل أو خوف من الحقائق المستقرة أو الصور المتفق على صيغة متوارثة عنها ، وأنه من دون هذين المصدرين فإن كتابة التاريخ تظل في حاجة إلى استكمال لكثير من العناصر الروحية التي تجعل من حياة التاريخ وحيوتيه أمرا متحققا .

ومع أننا كنا ولا نزال نؤمن بأن مناطق التقاطع والالتقاء بين التجربة الذاتية وبين الرحلة عديدة فإننا نؤمن في الوقت ذاته بأن هذه المنطقة لا تستظل إلا بالتاريخ ، بمعناه الواسع قبل معناه الحرفي ، ولا تنضبط إلا بمعناه الحرفي قبل معناه الواسع أيضا ، وأنها من دون هذا الاستظلال بالتاريخ وتجليات تصويره تصبح قاصرة وعاجزة عن النضج الفني بل عن النضج الانفعالي من قبل النضج الفني .

وينطبق هذا أيضاً على الشعر الاحتفالي الذي مهما كان فيه من صنعة أو مجاملة أو افتعال فإنه يبقى تعبيراً عن انفعال ذي طبيعة زمنية أو تاريخية حتى لو كان الانفعال بالأمر أو لو كان من أجل أمر.

بقي أن نشيرإلى أن كتابنا هذا يرجو أن يلقى ما لقيه أشقاؤه السابقين عليه من كتبنا الستة التي تناولت مناهج و طرائق كتابة التاريخ ، و نظن أن طول عهد القارئ بها كفيل بأن يجعله يتذكر تسلسلها بدءا من أدباء التنوير ثم النوافذ المتلونة ثم الزوايا الكاشفة ثم النجوم المتعاقبة ثم الانطباعات الذكية ثم كيف رأت٢٣ يوليو صورتها في المرآة .

أدعو الله سبحانه و تعالى أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به ، وأدعوه جل جلاله أن يوفقني إلي تقديم ما تبقى من أعمالي ، وقد طال العهد بتجاربها المطبعية في ظل غربتي ومرضي و تشردي و استيحاشي ، والوقت لا يسعفني، والجهد يتضاءل، والذكاء يخبو ، و الألمعية تنطفئ ، والقلب يئن ، والنظر يكل ، والعقل يتشتت ، والذاكرة تتبدد ، و السهل يتعقد ، والنَفَس يتقطع ، والأمل يتضعضع، والعمر قصير، والواجب كبير ، والمؤجل كثير ، لكن رجائي يتضاعف في فضل الله جل جلاله وكرمه.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يقيني شر الهوى، وأن يقيني شر التعجل، و شرور العجز و الكسل و الوهن ، وأن يقيني شر الانخداع، وأن يرزقني الغنى والهدى والعفاف والتقى، وأن يتجاوز عن سيئاتي، وأن يتغمدني برحمته، وأن يديم عليّ توفيقه، وأن يجعلني قادرًا على شكر فضله.

والله سبحانه وتعالي أسأل أن يمتعني بسمعي وبصري وقوتي ما حييت، وأن يحفظ عليّ عقلي وذاكرتي وحدسي و ذائقتي، وأن يجعل كل ذلك الوارث مني. والله سبحانه وتعالي أسأل أن يهديني سواء السبيل، وأن يرزقني العفاف والغني، والبر والتقى، والفضل والهدي، والسعد والرضا، وأن ينعم عليّ بروح طالب العلم، وقلب الطفل ، وإيمان العجائز، ويقين الموحدين، وإخلاص المؤمنين ، وعطاء المحسنين ، وشك الأطباء، وتثبت العلماء ، وخيال المبدعين ، وتساؤلات الباحثين.

والله سبحانه وتعالي أسأل أن يعينني على نفسي، وأن يكفيني شرها، وشر الناس، وأن ينفعني بما علمني، وأن يعلمني ما ينفعني، وأن يمكنني من القيام بحق شكره وحمده وعبادته، فهو وحده الذي منحني العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول، وهو جلّ جلاله الذي هداني، ووفقني، وأكرمني، ونعّمني، وحبب فيه خلقه، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتي وهي ، بالطبع وبالتأكيد، كثيرة ومتواترة ومتنامية، فله سبحانه وتعالي - وحده - الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل

د. محمد الجوادي

الباب الأول الشعر يحيي الزعماء

الفصل الأول رثاء الجارم لسعد زغلول باشا

تتجلى صورة من أفضل صور الفهم العميق للوطنية والزعامة في شعر علي الجارم في رثائه لسعد زغلول باشا، فهو رثاء وطني حافل بالمعاني الوطنية كما أنه رثاء شامل ودقيق صاغه شاعره وصاحبه على نحو يجمع بين الأصالة والمعاصرة، فنراه في قصيدة رثاء الزعيم العظيم وهو يقول:

لاَ الـدَّمعُ غـاضَ وَلا فُؤادُكَ سَـــالي ... دَخَـلَ الْـحِـمَـامُ عَـرِينـةَ الـرِّئْـبـالِ
وَأَصـــابَ في المَيْـدانِ فـارسَ أَمَّـةٍ ... رَفَع الكِنَـانـةَ بَعْـدَ طُولِ نِضَـــال
رَشَــقَتْه أَحْداثُ الْخطوبِ فأَقْصَــدَتْ ... حَرْبُ الخُطُوبِ الـدُّهْمِ غَيرُ سِــجَال
لِلْمَوْتِ أَسْــلِحَــةٌ يَطِيحُ أَمَـامَـهـا ... حَوْلُ الَجْرِيء، وَحِيلَـةُ المُحْتَـال

مكانة الزعيم سعد زغلول في التاريخ

ويتحدث الشاعر علي الجارم عن مكانة سعد زغلول في التاريخ وكيف استطاع هذا الزعيم أن يرفع مكانة وطنه حين تجلى للدفاع عنه في ميدان السياسة، غير هياب من الظروف غير المواتية، وهو يصف موقف سعد وزعامته على نحو سريع يلخص أبرز السمات في أداء هذا الزعيم، الذي كان قادرًا بمواقفه المتتالية على أن يحقق لوطنه ما حققه. وهو يتحدث عن عظمة الزعيم سعد زغلول الحقيقية العابرة للأجيال، وهي صورة رائعة من العظمة الباقية الذكر :

مـا كَـانَ سَــعْـدٌ آيـة فـي جِـيلِـه ... سَــعْـدُ الـمُـخَـلَّـدُ آيـةُ الأَجْـيَـال
تَـفْـنَـى أَحـادِيـثُ الـرِّجـالِ وَذِكْـرُهُ ... سَــيظَـلُ في الـدُّنْيـا حَـدِيـثَ رِجَـالِ
سَــــارٍ كمِصْــبَـاحِ السَّــمَـاءِ يَخُـثُّـه ... كرُّ الضُّــحَى وتَعـاقُـبُ الآصـــال

كيف قاد سعد الثورة

وينتقل الشاعر علي الجارم للحديث عن خطوات ثورة مصر الصادقة في سعيها لاستقلالها تحت قيادة الزعيم سعد زغلول، واصفًا أحوال الثورة من حيرة وهموم

وخوف وحزن، وحال الشعب المصري حين كان البطش يشتد عليهم والموت يهددهم، وهنا تظهر آثار قيادة سعد لأبناء مصر وتطلعاتهم الواثقة، فقد جعلتهم هذه القيادة يتحمسون لحقهم، على الرغم مما صادفوه من العنف والترهيب، وعلى الرغم مما فرض عليهم من دواعي اليأس والقنوط:

أرأيْتَ مصـــرَ تهُـبُّ لاسْـــتقلالِهـا ... والسَّـــيْفُ يَلْمَعُ فوقَ كـلِّ قَـذَالِ
والـذَّعرُ يعصـــفُ بـالقُلوب كَمَـا ... جَرتْ هُوجُ الرِّياحِ على كَثِيبِ رِمال
والأرضُ تَرْجُفُ، والسَّماءُ مَرِيضَـةٌ ... والـنَفْسُ حَيْرَى والـهُمُومُ تَـوَالـي
والنـاسُ في صَـــمْـتِ المَنُونِ كـأنّهُمْ ... صُـــوَرٌ كَسَـــاها الحزْنُ ثَوْبَ خَبال

تصدي سعد زغلول لترهيب الاحتلال

وهو يجيد تصوير جو الترهيب الذي فرضه المستعمر على مصر في محاولة لوأد ثورتها بقيادة الزعيم سعد زغلول:

إنْ حَـدَّثوكَ فَـبِـالْـعيـون لِـيَـتَّـقـوا ... رَصَـــدَ العيون وشِـــرَّةَ المُغْتـال
والموتُ يَخْطرُ في الْجمُوعِ وحَولَـهِ ... أَجْـنـادُه مـن أَنْصُـــلٍ وَعَـوالـي
ريّـانَ من مُهَجِ الشَّـــبـابِ كـأنَّمـاً ... مُهَجُ الشَّـــبـابِ سُـــلافَـةُ الْجِرْيَـالِ
وجَنَانُ مِصْـــرَ عَلَى جَنَاحَىْ طَائرٍ ... مِـمَّـا أَلَـحَّ عـلـيـه مِـنْ أَهْـوال
تـرْنُـو إلـى أبـنـائِـهـا بـنَـوَاظـرٍ ... غرِقـتْ بمـاءِ شُـــؤُونهـا الهَطّـال

تصويره لعناصر القوة في زعامة سعد زغلول

ويصف الشاعر علي الجارم الأثر الفاعل لزعامة سعد زغلول حين هز زئيره القوي الجو السياسي ، وحشد الناس للحق وأظهر فيهم عناصر القوة والحركة والنشاط، وذلك على الرغم من تقدم عمره، وما كان المرض يؤثر به على نشاطه، فإذا بالزعيم المحرك للجماهير كالنمر بل كالأسد، ذلك أنه هو القدر الذي رزقه الله لمصر:

وإذَا بصَـــوْتٍ هزَّ مصـــرَ زئيره ... غضَـــبُ اللّيوثِ حمايـةُ الأشْـــبَال
صـــوْتُ كَصُـــورِ الحشْـــرِ جَمَّع أمّةً ... مَـنـحـلَّـةَ الأطـرافِ والأوْصـــال
فتطَلّعـتْ عَيْنُ وأصـــغَـت بعـدَهـا ... أذنٌ وهـمـت أَلْسُـــنٌ بســـؤال

مَنْ ذلك الشَّـــعشَـــاعُ طـال كـأنَّـه صـــــدرُ القَنَـاةِ وعـامِلُ العَسّـــال؟
مَنْ ذلـك النَّمِرُ الوَثُوبُ وذلـك ال أَسَـــدُ المُزَمْجِرُ ذُو النِّـداءِ العـالي؟
ومَنْ الـذي اخْتَرقَ الصـــفوفَ كـأنّـه قَـدَرُ الإلــهِ يســـيرُ غيرَ مُبـالـي؟

سعد : ثلاثة أحرف

وهو يلخص فهمه لشخصية الزعيم سعد زغلول في حروف اسمه الثلاثة ودلالتها، ثم هو يصف حال مصر بهمتها وصبرها وإرادتها ونزالها وحكمتها:

سْــعدٌ وحســبكَ منْ ثَلاثة أحْرفٍ ماً ٍ فـي الْـبَـرِيّــةِ مـن نُـهًـى وكـمـالِ
كَتَب الكتائب حَوْل مِصـــرَ سِـــلاحُها صـــبْرُ الكـريمِ وهمَّـةُ الـفَعّـال
ومنَ السُّـــيوفِ إرادةٌ مَصْـــقُولـةٌ طُـبِـعَـتْ لـيـوْمِ كـريـهـةٍ ونِـزال
ومِنَ السَّـــوابِغ حِكْمـةٌ سَـــعْـديَّـةٌ ثُـزْرِي بـوَقْـعِ أسِـــنَّـةٍ ونِـبَـال
ومِن الحصـــونِ فؤادُ كلِّ مُصَـــابرٍ جَهْمِ العَزيمـةِ ضـــاحـكِ الآمـال

كيف شق سعد زغلول طريقه للنصر

و يصور الشاعر علي الجارم مسيرة الزعيم سعد زغلول في العمل الجاد من أجل النصر والحياة والاستقلال، فيصل إلى درجة عالية من الإبداع النفسي الذي لا يتجاوز حدود العقل والتخيل للأمر الواقع:

فَمضَـــى إلى النَّصـــرِ الْمبِين مُؤزَّرًا والشَّـــعبُ يَهتفُ بِـاسْـــمـه ويُغَـالي
وَهَدَى الشَّـــبَابَ إلَى الْحيَاةِ فأَدْرَكُوا مَـعْنَى الْـحيَـاةِ وَعِزَّ الإسْـــتِقْلالِ
وَجَرَى يُغَبِّرُ لاَ العَسِـــيرُ بِخَـاذِلٍ أمَـلًا ولا نَـيْـلُ السُّـــهَـا بِـمُـحـال

الإيمان بالجهاد

وعلى عادة المسلمين المؤمنين بالجهاد يستدعي الشاعر علي الجارم التشبيه الأمثل في هذه الحالات، وهو أن يشبه الدعوة إلى الثورة واستقلال الوطن بأذان بلال مؤذن الرسول ﷺ، وأن يشبه أداء القائد بأداء سيف الله المسلول خالد بن الوليد:

فكـأنّـه سَـــيْفُ الْمُـهَيْمِن خَـالِـدٌ وكَـــأَنَّ دَعْـــوَتَـــهُ أذَانُ بِـــلاَل

إعجابه بصلابة سعد زغلول

يحرص الشاعر علي الجارم في قصيدته التي رثا بها سعد زغلول على أن يصور موقف الزعيم سعد زغلول باشا من مناورات السياسة ومن سطوة القوة وغطرسة المستعمر، ولهذا نراه يقف أمام أداء الزعيم سعد زغلول وسياساته المتعاقبة وردود أفعاله ودعوته، موقف المعجب المبجل الذي يرى فيها وجوهًا متعددة للعظمة، فيشبه عظمته تارة بالسيل، وتارة بالسيف، وتارة بالشعلة الحمراء المشتعلة، وكأنه يريد القول أنه يجد في سياسات الزعيم سعد زغلول قوة الاندفاع وحسم القوة وهداية الحرية:

مَـا رَاعَـهُ نَـفْـيٌ وَلاَ لَـعِـبَـتْ بـه ... في حُـبِّ مِصْـــرَ زَعَـازِعُ الأَوجَـال
وَيَرى الْحتُوفَ وَقَـدْ مَلأَنَ طَرِيقَـه ... نَـارَ الْـحُـبَـاحِـبِ أَوْ وَمِـيـضَ الآل
يزدَادُ في عَصْـــفِ الشَّـــدَائِـدِ قُوَّةٌ ... وَيَجُولُ حِينَ يَضِـــيقُ كُـلُّ مَجـالِ
كَـالشُّـــعْلَـةِ الْحَمْراءِ لَوْ نَكَّسْـتَهـا ... لأَضَـــفْـتَ إشْـــعَـالًا إلَى إشْـــعَـالِ
وَالسَّـــيْلُ إنْ أَحْكَمْتَ سَـــدَّ طَرِيقَـه ... دَكَّ الْـحصُـــونَ فَـعُـدْنَ كَـالْأَطـلاَلِ
وَالصَّـــارِمُ الفَصَّـــالُ لَمْ يَـكُ حَـدُّه ... لَـولاَ اللّـهِـيـبُ بِصَـــارِمٍ فَصَّـــال

افتتانه بخطابة سعد زغلول

وهو يصف أداء الزعيم سعد زغلول حين يخطب بإعجاز بديهته، وما تعبر عنه خطابته من تفوق وبيان وبلاغة ولغة عالية وسيطرة كاملة على المستمعين:

إنْ قَـامَ يَخْطُـبُ قُلْـتَ حَيْـدَرَةُ انْبَرى ... لِلْقَوْل فِي سَـــمْـتٍ وَصِـــدْقِ مَقَـالِ
إعْجَـازُ عَـارِضَـــةٍ وَنُورُ بَـدِيهَـة ... وَبَـدِيعُ تَنْسِـــيقٍ وَحُسْـــنُ صِـــقَـالِ
يَـخـتَـارُ مِـنْ آيِ الْـكَـلاَمِ جَـوَاهِـرًا ... دُرَرُ الْبَلاَغَـةِ كَـاسْـمِـهِنَّ غَوَالِي
مَـا عَـقَّـهُ حُـرُّ الْـبَـيَـانِ وَلاَ جَـزَتْ ... أُمُّ الـلُّـغـاتِ وَفَـاءَهُ بِـمـطَـال
وَالسَّـــامِعُونَ كـأَنَّمَـا لَـعِبَـتْ بِهِمُ ... صَـــهْبَاءُ قَدْ نُفِحَتْ بِرِيحِ شَـــمَال

طبيعة الثورة في نفسية سعد زغلول

وهو يصف أداء الزعيم سعد زغلول حين يثور بركان الوطنية في حديثه وحين يتوثب ويدعو للنزال ويصيح كالصاعقة:

فَـإِذَا أَثِـيـرَ رَأَيْـتَ بُـرْكَـانًـا رَمَـى ... حُـمَـمًـا، وَدَكَّ الأَرْضَ بِـالـزَّلْـزَالِ
مُـتَـنَـمِّـرًا كَـاللَّـيْـث دِيسَ عَـرِيـنُـه ... مُـتَـوَثِّـبًـا يَـدْعُـو الـرِّجَـالَ نَـزَال
كَـلِـمٌ إِذَا حَـدَرَ الـلِّـئَـامَ رَأَيْـتَـهَـا ... حَـالَـتْ إِلَى مَسْـنُونَـةٍ وَنِصَـالِ
لاَ تَـذْكُرُوا نَـارَ الصَّـوَاعِقِ عِنْدَهَـا ... نَـارُ الصَّـوَاعِقِ عِنْـدَهَـا كَـذُبَـال

شرف الخصومة

ويصف الشاعر علي الجارم الزعيم سعد زغلول بما أدركه في أخلاقه من شرف الخصومة وبوضوح السريرة والطهر والأصالة:

خَصْـمٌ شَـرِيفٌ نَالَ مِنْ خُصَـمَائِهِ ... مـا نَـالَ مِـنْ إِجْـلاَلِ كُـلِّ مُـوالِـي
عَرفُوهُ وَضَّـاحَ السَّـرِيرةِ طَـاهِرًا ... شَـرُّ الْبَلاَءِ خُصُـومَـةُ الأَنْـذَالِ
إِنَّ الشَّـجَاعَةَ أَنْ تُنَاضِـلَ مُصْـحِرًا ... لاَ أَنْ تَـدِبَّ كَـفَـاتِـكِ الْأَصْـلاَلِ

طهارة سعد زغلول

ويعود الشاعر علي الجارم بعد عدة أبيات للحديث عن طهارة نفس الزعيم سعد زغلول وطيب شمائله، وما تميز به من تواضعه وعزته وعزيمته وشجاعته وحزمه وإيمانه بعقيدته:

نَـفْسٌ كَـأَنْـفَـاسِ الْـمَـلاَئِـكِ طُـهِّـرَتْ ... وشَـمَـائِـلٌ أَحْلَى من السَّـلْسَـال
وَتَـوَاضُـعُ النُّسَّـاكِ فِيـهِ يَزِينـه ... شَـمَمُ الْـمـلُـوكِ وَعِـزَّةُ الْأَقْـيَـال
وَخَـلاَئِقٌ كَـالـزَّهْرِ سَـارَ عَبِيرُهُ ... مـا بَـيْـنَ أَمْـوَاهٍ وَبَـيْـنَ ظِـلاَل
وَعـزِيـمـةٌ جَـبَّـارَةٌ لَـوْ حُـمِّـلَـتْ ... أُحُـدًا لَـمَـا شَـعَـرتْ لـه بِـكَـلال
وَشَـجَـاعَـةٌ فِي اللهِ يَكْلؤُهـا الحِجـا ... وَالْـحَـزْمُ فـي الإِدْبَـارِ وَالإِقْـبَـال
وَعَـقِـيْـدَةٌ لَـوْ هُـزَّتِ الْأَجْـبَـالُ مِـنْ ... ذُعْـرٍ لَـمَـا اهْـتَـزتْ مَـعَ الْأَجْـبَـال

العزاء لمجلس النواب

ويتقدم الشاعر علي الجارم بالعزاء لمجلس النواب (دار النيابة) في فقدان هذا الزعيم الرئيس الحكيم العادل القادر على الفصل في كل نزاع وعلى استخراج الحقيقة والوصول إليها:

دَارُ النِّيَـابَـةِ عُوجِلَـتْ فِي مِـدْرَهٍ ... كَـانَ الـزَّمَـانُ بِـهِ مـنَ الـبُـخّـالِ
ضُـــرِبَـتْ بِـهِ ٱلأَمْثَـالُ لَمَّـا أَنْ غَـدَا ... فِـــي دَهْـرِهِ فَـرْدًا بِـلاَ أَمْـثَـــال
قَـدْ كَـانَ فَيْصَـــلَهَـا إِذَا عَجَّـتْ بِهَـا ... لُـجَـجُ الْـخِـلاَفِ وَلَـجَّ كـلُّ جِـدَالِ
يَزِنُ الْكَلاَمَ كَمَـا يُوَازِنُ صُـــيْرَفُ ... فـي الـنَّـقْـدِ مِـثْـقَـالًا إِلَـى مِـثْـقَـال
وإِذَا الْحقِيقَـةُ أَظْلَمَـتْ أَسْـــدَالُهَـا ... صَـــدَعَ الـدُّجَى فَبَدتْ بِلاَ أَسْـــدَال

عزاء المريدين

وينتقل الشاعر إلى الحديث عن قدرة الزعيم سعد زغلول على توجيه أتباعه وأبناء الشعب وقيادتهم نحو الاتحاد والاعتصام بالحق:

جَمَعَ الْقُلُوبَ عَلَى الْوِفَاقِ وصَـــانَهـا ... مِنْ وَهْنِ رعْـدِيـدٍ وَطَيْشِ مُغَـالـي
لـم يَـنْـتَـقِـلْ حَـتَّـى تَـفَـجَّـر نَـبْـعُـهُ ... وشَـــفَـى الـنُّـفُـوسَ نَـمِـيـرُهُ بِـزُلاَل
عَـقَـدَ الإِلَـهُ عُـرَاهُ، جَـلَّ جَـلاَلُـهُ ... أَتَـرَى لِـعَـقْـدِ اللّهِ مِـنْ حَـلاَّلِ؟

وصف الجارم لمرض سعد زغلول ووفاته

يتحدث الشاعر علي الجارم عن مرض الزعيم سعد زغلول الأخير وإحساس محبيه بقرب نهايته، وكيف كان زواره يتأثرون بتدهور حالته وتمكن المرض منه واقتراب الموت من اقتطاف حياته:

لَـهْفِي عَلَيْـهِ وَهْوَ رَهْنُ فِرَاشِـــهِ ... مُـتَـفَـزِّزًا مِـنْ دائِـه الـقَـتَّـال
لَهْفِي عَلَى لَيْـثِ الكِنَـانَـةِ أَغْمِـدَتْ ... أَظْـفَـارُهُ مِنْ بَـعْـدِ طُولِ صِـــيَـال
قَنَصَـــتْ بَنَـاتُ الـدَّهْرِ واحِـدَ دَهْرِهِ ... وَرَمَـتْـهُ مِـنْ أَدْوَائِـهـا بـعُضَـــال

الحالة النفسية لزوار سعد

وهو يصف الحالة النفسية لمن كانوا يعودون الزعيم سعد زغلول في مرضه:

يَـرْنُـو إِلَـيْـهِ الْـعَـائِـدُونَ بِـأَعْـيُـنٍ غُـزْرِ الـدُّمُـوعِ كَـثِـيرةِ الـتَّسَـآل
مُـتَـقَـدِّمِـينَ تَسُـوقُـهُمْ لُـمَـعُ المُـنَـى مُـتَـرَاجِـعِـيـنَ مَـخَـافَـةَ الإِعْـوَال
والْمَوْتُ يَسْـخَرُ بـالْحيَـاةِ وطِبِّهـا جُـهْـدُ الْـحـيـاةِ نِـهَـايـةُ الآجَـال

تصويره جزع الشعب على سعد

ويصور الشاعر علي الجارم المدى الذي وصلت إليه لهفة جموع الشعب في الاطمئنان على زعيمه وتجمعهم حول بيته وتعبيرهم عن حبهم للزعيم، ورغبتهم في افتداء روحه و عرفانهم له بالجميل، وتعبيرهم عن هذا العرفان بالثناء الحسن الجميل على زعيمهم :

والشَّـعْبُ يَسْـأَلُ كَيْفَ سَـعْدٌ؟ مالَه والـنَّـاسُ فـي ذُعْـرٍ وفـي بَـلْـبَـالِ
يَفِدُون لِلْبَيْتِ الْكَرِيمِ كَأَنَّهُمْزُمَـرُ الـحـجـيـجِ تَسِـيـرُ فـي أَرْسَـال
يَـفْـدُون بـالـنَّـفْسِ الـرَّئيسَ، وإِنَّـمـا نَفْسُ الرَّئيسِ بقَبْضَـةِ المُتَعَـالي
عَـرَفُـوا الْـجـمِـيـلَ ولا تَـزَالُ بَـقِـيَّـة نَفْسُ الرَّئيسِ بقَبْضَـةِ المُتَعَـالي
عَـرَفُـوا الْـجـمِـيـلَ ولا تَـزَالُ بَـقِـيَّـة في النَّـاسِ لِلإِحْسَـانِ والإِجْـمَـالِ
مَنْ يَشْـتَرِي حُسْـنَ الثّنـاءِ فـإِنّمـا بِـفَـعَـالِـهِ يَشْـرِيـهِ لا بِـالْـمَـالِ

كيف تلقى الجارم نبأ وفاة سعد زغلول

يتقمص الشاعر علي الجارم شخصية مَن تلقى الخبر لتوه، فأخذ يخاطب الناعي الذي نعى الزعيم سعد زغلول، ويطلب منه أن يرأف بحال الأمة التي رزئت بوفاته، وانتابها الحزن الذي يعجز البيان عن تصويره، وخرجت لوداعه في هيبة وجلال:

يَـأَيُّـهـا الـنَّـاعِـي حَـنَـانَـكَ إِنّـمـا هِـيَ أُمَّـةٌ أَضْـحَـتْ بِغَيْرِ ثِمَـال
مـاذا تَـقُـول ولِـلـرَّزِيـئَـةِ رَوعَـة تُـغْـنِـي بَـلاغَـتُـهـا عـن الأَقْـوال
مَـنْ كَـان يَـرْثِـي أُمَّـةً فـي وَاحِـدٍ تَـكْـفِـيـهِ بـارِقـةٌ مِـن الإِجْـمَـال
وإِذا الْـبَـيَـانُ أَبَـى عـلـيـهِ فَـرِيـدُهُ فـالـدَّمْـعُ فِـيـه فَـرائِـدٌ ولآلِـى

سَـــارَتْ مَطيَّـةُ نَعْشِـــهِ عُجْبًـا بـه تَـخـتَـالُ بـيـن الـوَخْـدِ والإرْقَـالِ
فِيـهَـا كَتَـابُوتِ الْكَلِيمِ سَـــكِينَـة وَبَـقِـيَّـةٌ مِـنْ هَـيْـبَـةٍ وَجَـلاَل

خطابه الشهير لمشيعي سعد زغلول

ثم يأتي مقطع شهير من قصيدة الشاعر علي الجارم، وهو المقطع الذي يخاطب فيه الجارم مشيعي جنازة الزعيم سعد زغلول، سائلًا إياهم أن يختاروا أسلوبًا لتشييعه غير الأسلوب الرسمي، ذلك أنه لم يكن شخصًا عاديًا كأولئك الذين يمكن تشييعهم بجنازة رسمية وعربة مدفع:

لا تَـحْـمِـلـوه عَـلَـى الـمَـدَافِـعِ إنّـمـا فَـخـرُ الـزَّعـيـمِ قِـيـادَةُ الأَعْـزَالِ
أَجْـدِرْ بِـمَـنْ حَـمَـلُـوه فِـي غَـزَوَاتِـهِ أَنْ يَـحْـمِـلُـوهُ عَشِـــيَّـةَ الـتَّـرْحَـال

ثم هو يلتفت إلى مخاطبة الجمهور فيقول:

سِـــيرُوا عَلَى سَـــنَنِ الزَّعِيمِ فَـإنَّـهُ سَـــنَنُ الْـهُـدَى وَجَلاَئِـل الأَعْـمَـال
قَـدْ خَـطَّ مِـنْ أَخْـلاقِـهِ وجِـهَـادِهِ لِـلـفِـتْـيَـةِ السَّـــارِينَ خَـيْـرَ مِـثَـالِ
إنْ كـانَ لَـمْ يَـنـجُـلْ فـإنَّ لـهُ بِـكُـمْ عَـدَدَ الـنُّـجُـومِ الـزُّهْـرِ مِـنْ أَنْـجَـال
لا تَـيْـأَسُـــوا فَلَكَمْ أُبِـيـدَتْ قَبْلَكُمْ أُمـــمٌ بِـيَـأسٍ قَـاتِـلٍ وَمَـــلاَل

فلسفة الزعامة

وفي نهاية هذه القصيدة العصماء التي تُعدّ من عيون الشعر العربي المعاصر، يلخص الشاعر علي الجارم معاني قصيدته تلخيصًا رائعًا مقدمًا فلسفة الزعامة في عبارات واضحة الدلالة من حيث علاقتها بحياة الشعوب نفسها:

إنَّ الشُـــعُوب تُصـــابُ في أَبْطَالِهـا وحَـيـاتُـهـا فـي سِـــيـرَةِ الأَبْـطَـالِ
هِـيَ قُـدْوَةٌ لـلـعـامِـلـيـنَ وَأَسْـــوَة الْمُسْـــتَبْسِـــلِينَ وَقصَّـــةُ الأَطْفـال
سَـــعْـدُ حَيَـاةٌ في الَممـاتِ وَقَبْرُهُ مَـهْـدُ الْـجِـهـاد ومَجْـدُ الاسْـــتِقْبَـال
أَحْرَى بَمنْ وَهَـبَ الْحَيـاةَ لِقَوْمِـهِ أَلاَّ تُـمَـسَّ حَـيـاتُـهُ بـزَوَال

الفصل الثاني

قصيدة الجارم في مديح النحاس باشا زعيم الأمة

اختار الشاعر علي الجارم لقصيدته في تحية زعيم الأمة مصطفى النحاس باشا قافية توحي بمهابة الموقف ، وهي مهابة ناشئة عن حب و تقدير لا عن صرامة أو اصطناع ، وجاءت هذه القافية النادرة في شعر على الجارم لتصور شخصية بلغت في وقت إنشاد القصيدة ذروة الإجماع الوطني على زعامتها التي حققت معاهدة ١٩٣٦ و ما لحق بها من إلغاء الامتيازات الأجنبية في مونترو التي يشير إليها الشاعر بالاسم في وسط القصيدة ، و تبدو نهايات الأبيات التي نسمعها أو نطالعها مع ترديدها وكأنها أقرب إلى الوقار البرتوكولي اللائق بمراسم الاحترام والتبجيل الممتزج بالسعادة والبشر منها إلى الفرحة الاحتفالية المتمثلة في قوافي التنوين والمد في نهاية كلّ بيت.

ومن ناحية الموضوع فقد بذل الشاعر علي الجارم جُهداً عقلياً موفقا في صياغة الفكرة المرتبطة بالتدليل على تفوق زعامة مصطفى النحاس ، التي كانت الجماهير العربية أسبق وأسرع في الإحساس بها من النخبة ، وكان الشاعر علي الجارم في هذا الجهد الذي بذله صادقاً في التعبير عن إعجابه النفسي و العقلي بهذه الزعامة، فإذا عرفنا أن الشاعر من حيث المولد كان قريباً جداً من زعيم الأمة و كان يصغره بعامين فقط ، حيث تكون الندية راغبة في التعبير عن نفسها بأي نوع من أنواع التميز وليس الاعتراف ، فإننا نستطيع أن نفهم مدى الحب الحقيقي الذي كان الشاعر الجارم يُكنه لزعيم الأمة.

منحة الله لزعيم الأمة

يبدأ الشاعر علي الجارم التعبير عن هذه المعاني بالإشارة في البيت الأول إلى أن النحاس باشا كان موهوباً أتاه الله موهبة التقدم والزعامة والمجد والشرف، وفي البيت

الثاني يؤكّد على ما لا بد من التأكيد عليه من أن هذه الموهبة كانت منحة من الله سبحانه وتعالى، وأنها تكرّرت مع كلّ النعم التي أنعم الله بها على هذا الزعيم.

فرحة مصر بابنها

وفي البيت الثالث يصف الشاعر علي الجارم فرحة مصر بابنها الذي أولاها عنايته، وهو يصف في البيت الرابع حركة هذه الأعلام الخافقة المتعانقة في السماء، وفي البيت الخامس ، وهو يقدم صورة بديعة رائعة حين يلجأ إلى تصوير حركتها هذه كأثر من أثر هتاف الجماهير للنحاس باشا ومن ثم فإن الاعلام ترقص بفعل ارتفاع صوت هذا الهتاف ، وعلو قيمته ، وكأنها عذراء هيفاء ترقص على نغم محرك للمشاعر .

وفي البيت السادس ينتقل الشاعر علي الجارم إلى وصف متعة العين باللون الباعث على البهجة ، فيرى في أثر الفرحة بالنحاس باشا فتنة بألوان الرياض، ثم إنه يتعمق التعبير عن إحساسه بهذه الصورة التي يستقي ملامحها من الطبيعة وحسنها في الأبيات الأربعة التالية من السابع إلى العاشر.

القصيدة تخاطب زعيم الأمة

لنقرأ القصيدة من مطلعها حيث يخاطب الشاعر علي الجارم زعيم الأمة النحاس باشا فيقول:

مَلَكْتَ بما أوتيت ناصِيةَ النجمِ ... وحُزْت عِنانَ المجدِ والشرفِ الجمِّ
وعُدْت زعيمَ الفاتحين تقودُه ... يدُ اللهِ مِنْ غُنمٍ لمصرَ إلى غُنْمِ
تطالعُكَ الأعلامُ نَشوَى كأنَّها ... بكلِّ الذي أوليْت مِصْر على عِلْمِ
خوافِقُ تنأى في السماء وتلتقي ... كما مال رِئْمٌ في الفلاة إلى رئْمِ
ويُطربُها عالي الهتافِ فتنثني ... كما رقصتْ هِيفُ العذارى على نغمِ
فُتِنَّ بألوانِ الرياض وحُسنِها ... فقاسَمْنَها في الحُسنِ أو جُرن في القَسْمِ
وكادَ سُرورًا ما بها من أهلّةٍ ... يتيه على ابن الليل في ليلة التَّم
لها نشوةٌ لو أنَّ للكَرْمِ مِثْلَها ... لما كانَ إثْمًا أنْ تُساغَ ابنةُ الكرْم
زَهاها على الرايات أن انتصارَها ... على الدهرِ لم يُقْسَم لعُرْبٍ ولا عُجْمِ

وأن فَتَـاهـا لـم يـقـفْ فـي ثـيـابـه أخو نجـدَةٍ في يومِ حربٍ ولا سِـلْمِ
حمَـاهَـا وأعْلَاهَـا على النجْمِ سـعيُـه فللـه من يعْلي اللواءَ ومن يحْمي

المجد والنصر لا يأتيان إلا لمن يستحقهما

وينتقل الشاعر علي الجارم في الجزء الثاني من القصيدة إلى الحديث عن الفكرة الذكية التي تقول بأن المجد لا يأتي إلا لمن يستحقه ، وكذلك النصر الأشم وهو اللفظ الذي اختاره الشاعر علي الجارم لوصف ما حققه النحاس باشا من انتصار .

يبدأ الشاعر علي الجارم بهذا المعنى الدقيق المكثف الذي يُخصص له البيتين الحادي عشر والثاني عشر في صياغة مقتدرة، ثم يخصص أربعة أبيات أخرى للحديث عن الأزهار التي هي في نظره أنفس شيء في الحياة إذا ما ألقاها الشعب لزعيمه، ويُجيد الشاعر الجارم وصف هذا المعنى الشاعري الجميل:

أبَى المجدُ أن يـدنو بفضـل عِنـانـه لغير بعيـدِ الغَوْرِ والرأيِ والسـهمِ
وما خضـعَ النصـرُ الأشـمُّ لفاتحٍ إذا لم يكُنْ من خِيرة السـادةِ الشَّـمِّ
حملنـا لـه الأزهـارَ تَنْـدَى نضـارةً وتهتزُّ عن طيـبٍ وتَفْترُّ عن بَسْـمِ
وأنْفَسُ شـيءٍ فـي الحيـاةِ أزاهِرٌ يُبعثرها شَـعبٌ على قدمَيْ شَـهمِ
وجِئنـا بغُصـنِ الغـارِ تـاجًـا لجبهـةٍ عليهـا سـطورٌ من إبـاءٍ ومن عزْمِ
أقـامَ طـويـلًا بـالـريـاضِ كـأنَّـمَـا أُصـيبتْ بناتُ المجدِ في مصـرَ بالعُقْمِ

الشعب يحيط بزعيمه ويتحرك معه

في الجزء الثالث من القصيدة يبدو الشاعر علي الجارم وكأنه مؤرّخ يصف حركة الشعب في أفواجه المؤيدة للنحاس باشا ويلجأ في هذا التصوير إلى وصف الأفواج التي يقودها الحب في البيت السابع عشر ، والصفوف في البيت التاسع عشر ، واجتماع القرى والمدن ، والكيف والكم في البيت العشرين ، والحق أننا لم نصادف في حياتنا من أجاد وضع كلمتي الكيف والكم في نظم شعري على نحو ما فعل الجارم الشاعر في البيت العشرين من هذه القصيدة في قوله السلس : فما شئت من كيف، وما شئت من كم) .

ثم إن الشاعر علي الجارم في الأبيات التالية بدءاً من البيت الحادي والعشرين يُحاول أن يعبر عن معنى تقليدي لكنه جميل، وهو أن الشاعرية والفن والتصوير تعجز عن تصوير مدى ما كان الشعب يحيط زعيمه به من حب، وهو يستخدم في البيت الحادي والعشرين ألفاظاً اصطلاحية قديمة نفهم معناها وإن كنا لا نستعملها الآن ، وذلك من قبيل "الوهم المصور" يقصد معنى من معاني التصوير الفني أو الخيال المرسل، ومن "رسمها" يقصد تسجيلها و "القرطاس" الذي هو الورق ..وهكذا.

و يصف الشاعر علي الجارم دويّ الأصوات في البيت الثاني والعشرين والثالث والعشرين وصفا مؤثرا لكنه لا يوظفه في سيمفونية حب الزعيم مصطفى باشا النحاس بما كان ممكنا له وقادرا عليه .

وفي البيت الرابع والعشرين إلى صورة جميلة غير مسبوقة حين يجعل لنبرات الأصوات "أزيز النار"، وهي صورة صعبة على تصورنا وإن كانت أقرب إلى الصور الصحراوية لكنها مع صعوبتها صورة جميلة ومعبرة. وفي البيت الخامس والعشرين، يصف الشاعر علي الجارم تدافع الجماهير وزحامها حول زعيمها ، ويواصل تأصيل هذا الوصف من خلال مشاعره وتجربته في الأبيات التالية، مستمدا ظلال التصوير الفني من خبرات شاعرية جميلة تعبر عن المعاني المادية بألفاظ رقيقة عالية اللغة ، وصادقة الأحياء .

ويختم الشاعر علي الجارم هذا المقطع بالبيت الثالث والثلاثين الذي هو من أبيات شعر الحكمة وهو قوله:

إذا قـدَّرَ الشـــعـبُ الرجـالَ، فـإنّـهُ قمينٌ بـالاســـتقلالِ في الرأيِ والحُكْمِ

وفي هذا البيت يربط الشاعر علي الجارم فيه بذكاء بين استحقاق الاستقلال والقدرة الشعبية على تقدير الزعماء، ولولا أن كلمة قمين لم تعد شائعة لكان لهذا البيت مكانة الصدارة في قاعات البرلمانات العربية.

ومع هذا فإننا لا نزال قادرين على هذا إذا ما وضعنا كلمة حقيق بدلا من كلمة قمين على نحو ما كانت السيدة أم كلثوم تفعل في مواكبتها للذوق الغالب للجماهير.

ولنطالع هذا الجزء من قصيدة الشاعر علي الجارم في تحية النحاس باشا:

سَـــعى الشـــعبُ أفواجًا إليكَ يســـوقُه ... نـوازعُ حُـبٍّ قـد طَـغَيْن علـى الكتْمِ
رأيـنـا بـه الآذيَّ يـهـدُر مـاؤه ... وجـرجـرةُ الأمـواجِ فـي لُـجَّـةِ الـيـم
صُفوفٌ بناهَا اللهُ في حُبِّ «مُصطفى» ... تنَزَّهنَ عن صَـــدْعٍ وعُوفينَ من ثـأمِ
بهـا اجْتَمَعَـتْ كـلُّ المـدائنِ والقُرى ... فما شِـئتَ من كيفٍ وما شـئتَ من كَمِّ
إذا حـاولَ الوهمُ المصَـوِّرُ رَسْـمَها ... على صفحةِ القُرطاسِ عَزَّتْ على الوهمِ
وأصـواتُ صِـدْقٍ بالدعاء تتابعت ... لـهـا كَـدَويِّ الـنـحـلِ فـي أذُنِ الـنـجـمِ
أصـاخَ إليها الصُّـمُّ، يسـتمعونَها ... فـإن جَحَـدُوهـا فـالعفـاءُ على الصُّـمّ
تُـحِسُّ أزيـزَ الـنـار فـي نَـبـراتِـهـا ... وتَـلْـمَـحُ فـيـهـا قـوّةَ الـعَـزْمِ والـجـزْمِ
تكـادُ تميـدُ الأرضُ بـالحشـدِ فوقها ... وتنســدُّ أرجـاءُ الفضـاء من الزَّحْمِ
زعمتُ بأن أطوي لك الجمعَ سـابحًا ... فـلـلـهِ كَـمْ لاقـيـتُ مـن ذلـك الـزَّعْـمِ
أحـاطـتْ بيَ الأمواجُ من كُـلِّ جـانـبٍ ... أغـوصُ إلـى لـحمٍ وأطفـو علـى لـحمِ
إذَا نالَ مني الوكْزُ ما كانَ يشـتهي خـ ... ـَلَصـت إلى مـا لا أحـب من اللكْم
سَـدَدْتُ عليَّ الطَرْقَ لم ألْقَ مَسْـلَكًا ... وأوسعتُ طُرْقَ المجدِ والحسبِ والضخمِ
تمنيـتُ لو لامَسْـتُ كَفًّـا هي المُنَى ... خواتِمها قد صـاغها الشـعبُ من لَثْمِ
وشـاهَدْتُ شـهمًا كلّما رُمتُ رسـمَهُ ... تصـوّرتُ أخلاقَ الملائكِ في الرسْـمِ
وفُزت بوجهٍ من سـنَا اللهِ ضـوؤه ... كـريـمُ الـمـحيّـا لا قـطـوبٍ ولا جَـهْـمِ
إذا قـدَّرَ الشـعـبُ الرجـالَ، فـإنّـهُ ... قمينٌ بـالاسـتقلالِ في الرأيِ والحُكْمِ

النحاس باشا ذو الصدر المرتفع

يُخصّص الشاعر علي الجارم المقطع الرابع من قصيدته بدءاً من البيت الرابع والثلاثين لتلخيص حياة النحاس باشا مع السياسة وأماني الوطن ويُجيد هذا التلخيص معتمداً على عقيدته في توفيق الله للنحاس باشا، واعتماد النحاس باشا على الايمان الذي أفاضه الله عليه فجعله يصدع به الظّلم.

ويشير الشاعر علي الجارم في رابع أبيات هذا المقطع إلى ما اشتهر عن النحاس باشا من سيره وحديثه وهو مرتفع الصدر، وهي ملاحظة لفتت نظر الزعيم الإنجليزي ونستون تشرشل نفسه ، و يصف الشاعر هذا الصدر بما يستحقه من أنه كان حصناً لمصر ومؤملاً، كذلك فإن الشاعر علي الجارم يصف تسديد النحاس لأسهمه في خامس أبيات هذا المقطع و توفيقه في هذا التسديد ، كما يصف الشاعر

علي الجارم حديث الزعيم النحاس باشا وصوته ، و يجيد الشاعر بل يبدع في وصف تعاون الشعب مع زعيمه في تحطيم الاحتلال .

ويختم الشاعر علي الجارم هذا المقطع ببيت جميل من شعر الحكم يقول فيه:

إذا عَظُمَتْ نفْسُ امرئٍ جلَّ سعيُه وجلّ فَلَم يُوصَمْ بزهْوٍ ولا عَظْمِ

ولنطالع هذا الجزء من القصيدة الذي أجملنا الحديث عنه بهذه السرعة:

دعْونَاكَ للجُلّى فكُنتَ غِياثَها وقد عَبَثَتْ خيلُ الحوادثِ باللّجْمِ
عليكَ من اللهِ العزيزِ مَفاضةٌ من الحق لم تأبه لرمْحٍ ولا سهمِ
تصولُ على العُدوان تستَلُّ نابَهُ وتَصدعُ بالأيمانِ غاشيةَ الظلْمِ
وترفعُ صدرًا كانَ حِصْنًا وموئِلًا لمصرَ فأغناهَا عن الحصْنِ والأطَمِ
رميتَ فسدّدتَ الرمَاءَ وإنَّما هُو اللهُ يرمي عن يمينك إذْ ترْمي
وما كل ذي سهمٍ أصابت يمينُه ولا كل سهمٍ في إصابتهِ يُصْمي
وجنَّدتَ من آرائِكَ الغرِّ جحفلًا طلائِعُه أغنَتْ عن البيضِ والدُّهْمِ
وأرسلتَ صوْتًا في البلادِ مجلجلًا سمعنا به زأرَ الضراغِمِ في الأجْمِ
ففتّحت آذانًا وأيقظت أعيُنًا وصنتَ رِباطَ العنصرين من الفصْمِ
فلَمْ يرضَ جنبٌ أن ينَامَ على أذًى ولم يَرْضَ حَقٌّ أن ينامَ على هضْمِ
وطار بنُو مِصْرٍ لنجدةِ أمهم سِرَاعًا فأكْرِمْ بالبنين وبالأمِ
ونَالتْ بك استقلالَهَا مِصْرُ كَامِلًا على الرغم من كَيْدِ الزمانِ على الرغْمِ
وحَطّمتَ أغلَال الإسارِ، وقد لَوتْ يَدُ الدهْرِ واستعصتْ طويلًا على الحَطْمِ
إذا عَظُمَتْ نفْسُ امرئٍ جلَّ سعيُه وجلّ فَلَم يُوصَمْ بزهْوٍ ولا عَظْمِ

الزعيمان ومصر

وفي المقطع الأخير من قصيدة النحاس باشا حديث جميل يتناول به الشاعر علي الجارم علاقة النحاس باشا بالزعيم سعد زغلول باشا ، وتشبيه الشاعر الجارم لهذه العلاقة، تشبيهاً يستمده من القرآن الكريم وهو يُخاطب النحاس واضعاً تلمذته لسعد، وجُهده في البناء وتحقيق الآمال وتحويل الأحلام إلى حقيقة، ويمضي في حديث جميل يُلخّص الإنجازات على نحو ما كان النحاس يُلخصها، وهو لا يلجأ إلى

التصوير المخالف للمعهود ، وإنما هو يلجأ إلى الصور التقليدية الكفيلة بتحقيق الانطباع الذهني الذكي المتوافق مع حركة التاريخ.

تحدَّثَت الدنيا «بسعدٍ» و«مصطفى» وهل قُرئتْ أمُّ الكتابِ بلَا «بسمِ»
أبانَ لكَ الطرْقَ اللّواحب للعُلا فجَلّيتَ فعلَ الفارسِ البطلِ القرمِ
بَنَيْتَ وهدّمتَ الضلالَ مُجاهدًا فكنتَ كَريمًا في البناءِ وفي الهدْمِ
بك اهتزّت الآمالُ واخضرَّ عُودُهَا كما اهتزّ روْضٌ جادَه واكِفُ السَّجْمِ
ورُبَّ رجالٍ كالسحائبِ خُلّبًا تَسُدُّ مصابيحَ السماء ولا تهمي
يَرونَ من الحِلْمِ القرارَ على الأذى وأين قرارُ الهَوْنِ من خُلقِ الحِلْمِ
إذا شهوةُ الدنيا دهت عقْلَ عاقلٍ غدًا، وهو أذكى الناسِ شرًّا من الفَدْم
وإن عَشَقَتْ رُوحُ الفتى راحةَ الفتى فلا خيرَ في رُوحٍ ولا خير في جِسْمِ
وقفتَ لنصر الحقِّ في قصر «منترو» وقوفَ وضيءَ الرأي مُجتمِع الحزْم
وحولَكَ من أصحابِكَ الصيدِ فتيةٌ خِفافٌ إلى المولى شِدادٌ على الخَصْمِ
يروْنَ من الحتم الوفاءَ لقومِهمْ وليست بشاشاتُ الحياةِ من الحتْم
كأنَّ غُبارَ النصر في لَهَواتِهم جَنَى النحلِ أو أشهى وأطيبُ في الطعْمِ
لك الحِجَجَ البيضَ الصلَابَ كأنَّها نِصالُ سهامٍ قد حَزَزْنَ إلى العَظْمِ
أمَنْ جعل الضيفَ النزيلَ كواحدٍ من الأهْلِ يُرْمَى بالجفاء وبالذمِّ؟!
فَهِمْنا ولكن للسياسةِ منطقٌ عزيزٌ على الأذهانِ صعبٌ على الفَهْمِ
ومثلُكَ مَنْ ردّ العقُولَ لمنهجٍ سديدٍ وأرْدَى الشكَّ بالمنطقِ الحسَمِ
فما زلْتَ حتى أدركَتْ مِصرُ سُؤْلَهَا رفيعةُ شأوِ المجدِ موفورَةُ السهْمِ
وأصبحَ حُبًّا كل ما كان من قلا لمصرَ وغُنْمًا كل ما كانَ من غُرْمِ

الفتح المبين

يختم الشاعر علي الجارم قصيدته ببيتين رائعين في مديح النحاس وانجازه في البيت الأول ، ثم الفخر بما فعله هو نفسه في تصوير عظمة النحاس ومجده بوصف نثر فيه الزهر فأحسن النثر ، ونظم فيه اللؤلؤ فأبدع النظم .

هنيئًا لَكَ الفتحُ المبينُ فإنّه سيبقى على التاريخِ مُتَّضحَ الوسْمِ
نثرتُ له زَهْرًا وأنْظَمْتُ لؤلؤًا فأحسنتُ في نَثري وأبدعتُ في نظْمِي

الفصل الثالث

قصيدة الجارم في رثاء محمد محمود باشا

تمثل هذه القصيدة مفتاحا من مفاتيح فهم تاريخ مصر في عصر الليبرالية الذي أعقب ثورة ١٩١٩ ذلك أن الشاعر الذي نظمها كان بالإضافة إلى شاعريته من كبار موظفي الدولة الذين وصلوا في ذلك العام الستين من عمرهم وهو سن التقاعد، ولم يكن من أنصار الزعيم الوطني الذي يرثيه في القصيدة، ومع هذا فإن الشاعر يقدم لتاريخ أمته هذا العمل الفني والوطني الجليل، ولم يكن الجارم وحده يومها فقد نظم ثلاثة من الشعراء الكبار (العقاد وخليل مطران ومحمود حسن إسماعيل الذي كان أقربهم لرئيس الوزراء المرثي) قصائد موازية.

مقارنة قصيدته في رثاء محمد محمود بقصيدته في النقراشي

من الإنصاف للشاعر علي الجارم أن نبدأ فنقول إن قصيدته في محمد محمود لا تقل في مستواها عن أخر قصيدة نظمها وهي قصيدته الحميمية في رثاء النقراشي بيد أن مرثيته للنقراشي باشا (١٩٤٩) تبدو أكثر عاطفة وأكثر ترتيبا و سبكا من قصيدته في محمد محمود باشا (١٩٤١) التي كان الشاعر حريصا فيها على أن يحيط فيها بكثير من مقومات السياسة ، ومن العجيب أنها لا تقدم محمد محمود في صورة شاعرية ولا برؤية شاعرية ، وإنما هي تصور محمد محمود باشا على نحو لا يختلف أبدا عن الصورة الشائعة عنه، من دون أن تقصد إلى تعميق الحديث عن معنى من المعاني على نحو ما فعلت مرثيته للنقراشي بما فيها من عاطفة مشبوبة فرضها ما نعرفه من قسوة التأثر العاطفي بالغياب المفاجئ .

مقارنة قصيدتيه بقصائده في الزعماء والشعراء

وبالطبع فإن هاتين القصيدتين مع جودتهما لا ترقيان في مستواهما الوجداني الذي عاشه الشاعر الجارم الى قصائده هو نفسه في سعد زغلول (وهي قمة مدائحه ومرثياته) لكنهما تقتربان بكل تأكيد من قصائده في النحاس باشا و الشعراء شوقي

وإسماعيل صبري وحفني ناصف والزهاوي ، ففي تلك القصائد نجد الجارم يذيب نفسه و بيانه وخياله في موضوع القصيدة .

أخذ من الفنان مختار فكرة التمثال والقاعدة

و في قصيدتيه عن محمد محمود والنقراشي يواصل الشاعر الجارم ما أنجزه في قصائده الرائعة التي اشرنا اليها لتونا من قدرة رحبة على التصوير القوي الموحي ذي الأفق الإنساني الرحب الذي كان يمكنه بل يلزمه بأن يكفل لشعره أن ينحت تمثالاً ضخما ، و أن ينصبه باقتدار و رشاقة على قاعدة منحوتة أيضا ببيانه الفذ ، وذلك على نحو ما كان معاصره المثال العظيم محمود مختار يهتم بالتمثال والقاعدة معا ، وكان الشاعر على الجارم يلجأ في هذا إلى كل ما هو قادر على استحضاره بحكم ثقافته و ذائقته و وطنيته وانطباعاته.

يذكر اسم من يرثيه منذ البيت الأول

ونحن نرى الشاعر الجارم في مطلع هذه القصيدة على غير عادته وعلى غير عادة الشعراء عامة يذكر اسم من يرثيه منذ البيت الأول ويختار له أن يسميه بابن محمود، وذلك لما اشتهر من اعتزاز محمد محمود باشا ١٨٧٧- ١٩٤١ بوالده محمود سليمان باشا.

ومن الطريف أن ذلك الوالد فرض اسمه كما فرض ظله فأصبحت القصيدة دالية القافية، وهي قافية ليست بالسهلة وإن كانت فيما لاحظناه محببة عند الشاعر الجارم ، و على الرغم من الصعوبة في الحصول على مفردات تنتهي بالدال فإن المعجم الشعري للجارم كان قادرا على أن يزوده بالكلمات الجميلة، على نحو ما سنرى بالتفصيل في نهاية حديثنا عن هذه القصيدة .

لمحة عن قصائد الجارم الطوال

وقبل أن نمضي في الحديث عن مضمون هذه القصيدة و دلالاتها نذكر أنها تقع في ٦٨ بيتا، وهو كما سنرى من الأرقام القريبة من متوسط أطول قصائد الجارم، وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فمما هو جدير بالذكر أن ترتيب قصائد الجارم في رثاء

الزعماء السياسيين من حيث الطول كان على النحو التالي: رثاء سعد زغلول (٩٠) رثاء الملك فؤاد (٨١)، رثاء النقراشي باشا (٧٢)، رثاء محمد محمود (٦٨).

أما في رثاء الشعراء والمفكرين فإن ترتيب قصائده من حيث الطول: قصيدة خلود في حافظ وشوقي (٩٩ بيتا) شوقي (٨٤ بيتا)،الزهاوي (٨١ بيتا) ،عبد الوهاب النجار (٧٧ بيتا) ، محمد أمين لطفي (٧١ بيتا)، أبو الفتوح الفقي (٦٩ بيتا) حفني ناصف (٦٩ بيتا) محمد عاطف بركات (٦٨ بيتا) قاسم أمين (٦٥ بيتا)،

طول القصيدة وازى طول قصيدته في تحية النحاس

ومن الجدير بالذكر أن قصيدته في تكريم النحاس باشا (الذي عاش بعد الجارم ١٦عاما) كانت من ٦٨ بيتا أيضاً.

الشاعر يسأل عينه أن تجود بالدمع

يبدأ الشاعر علي الجارم قصيدته سائلا عينه أن تجود بما تشاء فقد فقدت ابن محمود، الذي هو أشجع الرجال يوم النضال، والذي تعرفه الساحات ، وتعرف المتعاونين معه والمتعاون معهم، ويشهد له الحق بالحق والقدرة على إنفاذه، فهو الرجل الذي دعته مصر في أزمة من أزماتها وهي حيرى مبتئسه تعاني الهَوْل والسواد وليس لها إلا الإيمان والأبناء فاستجاب لها هو ومن كانوا معه.

السياق التاريخي

على هذا النحو العمومي يتحدث الشاعر على الجارم عن محمد محمود باشا في أكثر من ثلثي قصيدته، وهي قصيدة مجيدة للتعبير عن السياق التاريخي كما نرى لكنها فيما يبدو صيغت على عجل حين كان الجارم نفسه مشغولا بأشياء أخرى كثيرة، وليس في هذا ما يعيب موهبة الشاعر ولا شاعريته .

لو أعدنا ترتيب أبيات القصيدة لخرجنا منها بقصيدة أخرى

من الواضح لنا أنه كان في وسع الشاعر على الجارم أن يُعيد ترتيب أبيات هذه القصيدة من دون إضافة ولا حذف فيخرج منها قصيدة أخرى أكثر روعة من هذه

القصيدة الرائعة ، وعلى سبيل المثال فإن كل هذه الأبيات السابقة التي أشرنا إلى مجملها كان من الممكن أن تتأخر إلى قرب نهاية القصيدة ، بعد أن يكون الشاعر قد رسم صورة الانسان في الزعيم محمد محمود و وشمها بالمديح الخاص الذي أضفاه عليه و ألقاه في رثائه ، ومن ثم تصبح هذه الأبيات الجميلة تأكيداً للمديح ، أما أن يبدأ بها فقد بدت مع كل إعجابنا بها وكأنها من أبيات النسيب التي يبدأ بها الشاعر فيلقيها حتى يخضع له المعنى ، مع أن المعنى مستقيم في طاعته كما سنرى في أبيات القصيدة .

وعلى كل حال فإن هذه الأبيات الأولى حافلة كما أشرنا بمعاني كثيرة أجاد الشاعر الجارم التعبير عنها:

أشجع الرجال يوم النضال

جُودِي بما شئتِ من ذوْبِ الأسَى جُودِي ... أوْدَتْ صُـــروفُ الليالي بابنِ محمودِ
أوْدَتْ بـأشـــجعِ من حَفّ الرّعيلُ بـه ... يومَ النِّضـــالِ ومَنْ نادَى ومَن نودي
أوْدَتْ بمن تعرفُ الســـاحاتُ كَرّتَـه ... إذا تـنـكَّـبَ عـنـهـا كـلُّ مَـزْءود
ويشـــهـدُ الـحـقُّ أنّ الـحـقَّ فـي يـدهِ ... ســيفٌ يروُعُ المنـايـا غيرُ مغمود
دعتـه مصـــرُ وللأحـداثِ مَلْحَمـةٌ ... والخطـبُ مـا بينَ تَهْـدارٍ وتهـديـد
وأنفسُ النـاسِ في ضـــيقٍ وفي كمـدٍ ... كـأنّـهـا زفرةٌ في صـــــدرِ معمود
حـيـرَى تـلـوذُ بـآمـالٍ مـحـطّـمـةٍ ... كـمـا يـلـوذُ غـريـمٌ بـالـمـواعـيـد
طارت شَـــعاعاً وهَوْلاً مثلما عصـــفت ... هُوجُ الريـاحِ برمـلِ البيـدِ في البيـدِ
والـجـوُّ أكْـلَـفُ والـدنـيـا مُـقـطِّـبـةٌ ... أيّـامُـهـا البيضُ من ليلاتهـا السّـــود
ومصـــرُ ليس لهـا حِصْـــنٌ ولا وَزَرٌ ... إلاّ الغَطـاريفَ من أبنـائهـا الصِّـــيد
لهـا ســـلاحٌ من الإيمـانِ تشـــرَعُـه ... ينبو لـه كلَّم صـــقولٍ ومحـدود

وصف محمد محمود بأنه خالدي العزم

ثم يبدأ الشاعر علي الجارم بعد هذا نوعا من تخصيص الحديث لشخص المرثي لكنه يجد أنه لابد له من يعاود الحديث عن الفريق وعن الجماعة، وليس من شك في أن ما يشرف أي ممدوح وأي راحل أن تُحمد جماعته، وهو من ضمنها، لكننا بحكم أننا قراء ندرك أن لمثل هذا الثناء حدودا يفرضها تاريخ الشخص نفسه فقصيدة الرثاء في البداية والنهاية مخصصة لشخص واحد.

ولننظر إلى هذه الابيات حيث يبدأ الجارم بوصف محمد محمود بأنه خالدي العزم نسبة إلى خالد بن الوليد فإذا بالصورة تقوده إلى أوصاف الحرب والنزال ، مع أن محمد محمود لم يكن رجل حرب ولا نزال وإنما كان رجل سياسة وإدارة، ومن الطريف أن الصور التي يقدمها الجارم في هذه الأبيات صور جميلة تستحق العناء الذي بذل فيه لكنها غير وثيقة الصلة بمحمد محمود باشا وانظر على سبيل المثال إلى قوله في البيت الثامن عشر" كم هشم الدهر من سني ليعجمهم" أو انظر إلى دلالة وألفاظ البيت العشرين:

فجاءها خالديَّ العزمِ في نفرٍ ... شمِّ الأنوفِ صناديدٍ مناجيد
من كلِّ أرْوعَ عُنوانُ الجهادِ به ... قلبٌ ركينٌ ورأيٌ غيرُ مخضود
جاءوا يزاحمُهم عزمٌ وتفديةٌ ... كما تصادم جُلْمودٌ بجلمود
كأنّهم حينما شدّوا لغايتهم ... سهمُ المقاديرِ في قصدٍ وتسديدِ
صدورُهم بلقاء الهوْلِ شاهدةٌ ... والطعنُ في الظهرِ غيرُ الطعنِ في الجِيد
جادوا لمصرَ وفدَّوْها بأنفسهم ... والجودُ بالنفسِ أقصَى غايةِ الجود
كم هشمَّ الدهرُ من سنٍّ ليعجُمَهم ... ولم تزَلْ في يديْه نَضْرةُ العود
إن الذي خلق الأبطالَ صوَّرهم ... من ثَوْرة البحرِ أو بأسِ الصباخيد
يمشي الشجاعُ لحد السيف مبتسماً ... ويرهَبُ الغِمدَ ذُعراً كلُّ رِعْديد

الخالق يعطي النفوس بمقدار جوهرها

ثم يتحدث الشاعر علي الجارم عن الأرزاق التي يقسمها الله سبحانه وتعالى، وكيف يعطي النفوس على مقدار جوهرها على حد قوله:

سبحانك الله إن تحرم فتزكيةٌ ... وإن تُثِبْ فعطاءٌ غيرُ محدود
تعطي النفوسَ على مقدارِ جوْهرِها ... ما كان لليثِ منها ليس للسيِّد
والمجدُ عَزْمةُ أبطالٍ مسدَّدةٌ ... بريئةٌ النصلِ من شكٍّ وترديد

دلال العلا كدلال الفاتنات

ويصل الشاعر علي الجارم إلى ذروة الأبيات المتميزة في هذه القصيدة في البيت الثامن والعشرين الذي يقرر فيه أن العلا شأنه شأن الفاتنات له دلال يجعله يبتعد عنك كلما اقتربت منه

وللعلا من صـــفـات الغِيـدِ أنّ لهـا دَلاً يـروِّع تـقـريـبـاً بـتـبـعـيـد

تشبيهات جميلة لكنها خطرة الدلالة

ثم يتحدث الشاعر علي الجارم إلى محمد محمود باشا حديثا خاصا شبه مباشر يصف فيه إقبال من رضوا بزعامته عليه، وهو يشبههم بموج البحر ، وهو تشبيه جميل لكنه يدفعنا إلى التحفظ على جماله لأنه يتضمن أن هؤلاء الذين يأتون غليه (في حالة المد) سيعودون عنه في حالة الجزر، ولا أعرف كيف فات هذا المعنى على استاذنا الجارم، وهو في بيت تال (البيت ٣١) يشير إلى مصاعب الطريق الذي سار فيه محمد محمود باشا واتباعه فيجعلنا نتحفظ أيضا على الوصف الذي اختاره حين جعلهم يمشون في فيافي الشوك، وليس شرطا أن يكون السير في فيافي الشوط هو الدليل على الوطنية أو السياسة أو الحكمة أو التضحية!

وعلى هذا النحو يمضي الشاعر الجارم حتى يصل إلى بيت من الأبيات المميزة هو البيت الرابع والثلاثون

جـاءوا إليـك كموجِ البحرِ عُـدَّتُهم رأيٌ أصـــيـلٌ وصـــدرٌ غيرُ مفئودِ
فَـقُـدْتَـهـم غـيـرَ هـيّـابٍ ولاَ فَـزِعٍ إلـى لـواءٍ بـحـبـلِ اللّه مـعـقـود
تمشـي بهم في فيافي الشـوْكِ معتزماً فكـل شـــيءٍ ســـواهـا غيرُ موجود
لا يسـتبيك سـوى مصـرٍ ونهضـتِها فكـل شـــيءٍ ســـواهـا غيرُ موجود
من يقصـــد النجمَ في عُلْيا ســـماوتِه نـأى بجـانبِـه عن كـلِّ مقصـــود
وراءك الركـبُ في يـأسٍ وفي أمـلٍ لـمـا يـروْن وتصـــديـقٍ وتـفـنـيـد

ملامح زعامة محمد محمود

ثم إن الشاعر علي الجارم بعد هذا البيت يبدأ في تقديم بعض صفات زعامة محمد محمود الحانية (٣٥) والقادرة على استشراف المستقبل (٣٦) وهو يصوغ فكرة عبقرية بصياغة سريعة في بيت واحد كان كفيلاً له بمقطع كامل هو البيت السابع والثلاثون:

تحنو على ضعفِ من طال الطريقُ به ... حـنـانَ والـدةٍ ثَـكْـلَـى بـمـولـود
وتلمَحُ الأفْقَ هـل بـالأفْقِ من نبـأٍ ... وهـل من الـدهر إنجـازٌ لموعودِ
وهـل طيوفُ الأمـاني وهي حـائرةٌ ... تـدنو بطيفٍ من الآمـالِ منشـود

قلقه على مستقبل مصر

وبدلاً من أن يتعمق الشاعر الجارم المعنى الذي اجاد وصفه في هذا البيت فإنه يبدأ في الحديث المترقب عن مستقبل مصر في قلق، مجريا هذا السؤال على لسان محمد محمود ، وقد سأله لنفسه عند عودته من المنفى الذي نفي إليه مع زعيم الأمة سعد زغلول أو هكذا نفهم من السياق التالي الذي يصور الفرحة بنجاح ثورة ١٩١٩ وصدور الدستور ومجيء زمن حرية الرأي (البيت ٤٤) وإشراق الصباح:

وهل ترىَ مصـرُ صُـبحاً بعدَ ليلتها ... وهـل تـقَرُّ عُيونٌ بـعـدَ تسـهيـد
وهـل لمعتَقـلٍ في البحرِ من أمـلٍ ... في أن يَرَى قومَـه من بعدِ تشـريـد
حتى بدت غُرّةُ الدُسْـتورِ عن كَثَبِ ... كمـا تبـدّى هلالُ العِيـدِ في العيـد
فأرسـلتْ مصـرُ بنتُ النيلِ من دمِها ... وَرداً تَـزينُ بـه هـامَ الصـنـاديـد
وصـفَّقت لحُماةِ الغِيلِ تُنشـدُهم ... من البطولـةِ مـأثورَ الأنـاشـيـد
والنـاسُ بينَ بشـاشـاتٍ وتهنئـةٍ ... وبـينَ شـكرٍ وتكبيرٍ وتحـميـد
جـاء الـزمـانُ فـلا قـوْلٌ بـمـمـتـنـعٍ ... على اللسـانِ ولا حرٌّ بمصـفود
وأشـرقَ الصـبحُ والـدنيـا مهلّلـةٌ ... كـأنّـه بَسـمـاتُ الـخُـرّدِ الـغِـيـد
من ينصـرِ اللهَ لا جَوْرٌ يُجيـدُ بـه ... عـن الـطـريـق ولا جَـهْـدٌ بـمـفـقـود
سـيكتُبُ الـدهرُ فليكتـبْ فليس يَرَى ... إلا صـحـائفَ تشـريفٍ وتمجيـدِ

نشأة متميزة

وبدءا من البيت الثامن والأربعين يبدأ الشاعر الجارم في الحديث الذي يرثي به محمد محمود والذي لو كان قد قدمه في بداية القصيدة لجاءت القصيدة كلها لتؤكد عليه فإن تأكيدها على المعاني التي قدمها عن محمد محمود كان أسهل بكثير، وهو على سبيل المثال يتحدث عن نشأة محمد محمود في بيت النبل والتضحية والآباء ذوي الأمر المطاع والرأي السديد.

نَمَتْ خلائقُه في بيتِ مَكْرُمةٍ ... في سُوحِهِ المجدُ فينانُ الأماليد
بيتٌ دعائمهُ نُبْلٌ وتضحيةٌ ... إذا بنى الناسُ من صخرٍ ومن شِيد
وسار في سَنَن الآباءَ متّئِداً ... أمرٌ مطاعٌ ورأيٌ غيرُ مردود

الفرق بين العزة و الكبر

ثم هو يتحدث في أربعة أبيات أخرى عن ثلاث سمات بارزة في محمد محمود هي الهمة (البيتان ٥١ و٥٢) والفكرة (٥٣) ،والعزة (٥٥ و٥٦) حديثا شاعريا جميلا يقدم كل صفة من هذه الصفات في ثوب من التقدير بل التقديس الذي يكسب صاحبها مكانة من أرفع ما يمكن في العصر الذي عاشه.

و يركز الشاعر علي الجارم حديثه على صفة العزة التي يراها هو في محمد محمود بينما يشخصها كثيرون على أنها الكبر، وهو ينتصر لرأيه برشاقة الشعراء من دون أن يجهد نفسه في نفي ما يزعمه الآخرون، وإنما هو يُشخص ما يرونه بتفسير مختلف عما يذهبون اليه فيرى الكبر محمدة إذا كان فيه التسامي عما يودي بالعلا

وهمّةٌ تتأبّى أن يُقال لها ... إن جازتِ النجمَ في مسعاتِها عودِي
تجرّدت لصعابِ الدهرِ واثبةً ... وَيْلَ المصاعبِ من عزمٍ وتجريد
وفكرةٌ لو تمشّت نحوَ معضلةٍ ... صفت مواردُها من كلِّ تعقيد
وعزّةٌ نظرت للكونِ مِن شَرَفٍ ... عالٍ يعِزُّ على رَقْيٍ وتصعيد
قالوا هي الكِبْرُ قلتُ الكبر مَحْمَدةٌ ... إذا تساميتَ عمّا بالعلا يودِي

المهابة والذكاء والترفع

و يستأنف الشاعر علي الجارم هذا الحديث الذي يزكي به شخصية المرثي من خلال صياغات تقليدية جميلة من قبيل تصوير انطباع الناظر إليه حين يرنو إليه فيغضي من مهابته، وبالإضافة إلى المهابة فإنه نفّاذ الذكاء ، معتدل الرأي ،قوي العزم ، عزيز النصر ، شريف الخصومة، كما انه مترفع عن الدنيا والدنايا، حائز على المعالي:

ترنو إليه فتُغضِي من مهابتهِ ... فالطرفُ ما بينَ موصولٍ ومصدود
خاض السياسةَ نفّاذَ الذكاءِ فما ... رأْيٌ بنابٍ ولا عزمٌ بمكدود
فكم له وقفةٌ فيها مجلجِلةٌ ... وكم مقامٍ عزيزِ النصر مشهود
وكان خصماً شريفَ الصدرِ مرتفعاً ... عن الدنيّاتِ إنْ عادَى وإنْ عودي
فاسألْ مُناصرَه أو سَلْ مخالفَه ... فليس فضلُ ابنِ محمودٍ بمجحود
لمَّا رمَى زُخْرُفَ الدنيا وباطلَها ... ألقتْ إليه المعالي بالمقاليد

العود يبكي لها كما تبكي هي عليه

و أخيرا يخاطب الشاعر علي الجارم الزعيم محمد محمود باشا فيطلب إليه أن يتقبل هذا الرثاء ممن لم يعد قادراً على رثاء آخر، فقد تحطمت أوتاره، فأصبح العود يبكي لها كما تبكي هي عليه:

خذِ الرثاءَ نُوحاً ملؤُه شَجَنٌ ... لم تبقَ بعدَكَ أدواحٌ لتغريدي
ما في يدي غيرُ أوتارٍ محطَّمةٍ ... يبكي لها العُودُ أو تبكي على العودِ

مناقب محمد محمود

ويعود الشاعر علي الجارم إلى التعميم في الحديث عن مناقب هذا الزعيم الذي يرثيه في بيتين تاليين:

وكلُّ جمعٍ إلى بَيْنٍ وتفرقةٍ ... وكلُّ شملٍ إلى نأْيٍ وتبديد
أمست تجاليدُه في جوْفِ مظلمةٍ ... كم صَوْلةٍ وإباءٍ في التجاليد

ثم هو في البيت السادس والستين يخاطب محمد محمود باشا بخطابه التقليدي لكل من يرثيهم فيقول له نم ملء جفنيك (وقد قال للنقراشي نم قرير العين، ولأنطون الجميل وللشيخ عبد الوهاب النجار كذلك)

نَمْ مـلءَ جفنيْـكَ في رُحْمَي ومغفرةٍ ووارفٍ مــن ظــلالِ اللّه مــمــدودِ

الخلود والهمة والبطولة

ثم يلجأ الشاعر علي الجارم إلى التعميم مرة أخيرة في البيت السابع والستين لكنه لا يلبث إلا أن يعود إلى مخاطبة محمد محمود باشا نفسه في آخر أبيات القصيدة ببيت تقليدي لكنه جميل يخرج الجارم من هذا الجو ليتحدث حديثا شاعريا متوهجا أقرب إلى الرثاء الخاص بمحمد محمود فيتحدث عن الخلود والهمة والبطولة، والوثبة في مقابل الخمول والموت:

إنّ الـبـطـولـةَ والأجســـادُ فـانـيـةٌ تبقَى على الـدهر في بعـثٍ وتجـديـد
لم يَخْـلُ منـكَ مكـانٌ قـد تركـتَ بـه مـا يملأُ الأرضَ من ذكرٍ وتخليـد

المعين الذي استقى منه الجارم نهايات متميزة لأبيات قصائده

والآن ننتهز الفرصة لنفي للقارئ بما وعدناه به من تأمل المعين الذي استقى منه الجارم ٦٨ نهاية لأبيات قصائده، ونحن نجده وقد لجأ إلى الصفات والمصادر والاسماء والجموع والأفعال على حد سواء، ولم يكرر إلا كلمات قليلة، وها هي المفردات التي استخدمها الجارم ليصنع قافيته الدالية، وقد كتبت أرقام الأبيات التي وردت فيها الكلمات بعد كل كلمة في قوسين.

- كانت المصادر بالطبع هي الأكثر استخداما وقد استخدم الجارم منها المصادر التي على وزن تفعيل: تهديد (٥)، تسديد (١٥)، ترديد (٢٧)، تبعيد (٢٨)، تفنيد (٢٤)، شهيد (٣٨) تشريد (٣٩)، تحميد (٤٣) ، تمجيد (٤٧)، تجريد (٥٢)،تعقيد (٥٣)،تصعيد (٥٤) تغريد(ي) ، (٦٢) ، تبديد (٦٤)، تجديد (٦٧)، تخليد (٦٨).

- استخدم الشاعر من الأسماء الشائعة التي هي في الأصل مصدر: العود (١٨)،العيد (٤٠) ،شيد (٤٩) وشبيه بها : الجود (١٧)
- أما الصفات وأغلبها من وزن مفعول فقد استخدم منها مصدراً كرّره ثلاث مرات وهو: محدود في الأبيات (١١ و١٢ و٢٥) ،واستخدم منها أيضا: مزءود (٣)،مضمود (٤)،محمود (٦)، مخضود (١٣) ، ملحود (٢٤)،مفئود (٢٩)،معقود (٣٠)،موجود (٣٢) ،مقصود (٣٣)،مولود (٣٥)، موعود (٣٦)،منشود (٣٧) ،مهنود (٤٤)،مفقود (٤٦)،مردود (٥٠)،مصدود (٥٦) مكدود (٥٧)،مشهود (٥٨)،مجحود (٦٠)،ممدود (٦٦).
- استخدم الشاعر الجارم من الأفعال: نودي (٢)، يودي (٥٥)،عودي من العودة (٥١)، عودي من العداء (٥٩) . واستخدم من الجموع : المواعيد (٧)، البيد (٨) ، السود (٩)، الصيد (١٠)، مناجيد (١٢) ، الجيد (١٦) ، الصباخيد (١٩)، الأخاديد (٢١)، المواليد (٢٣)، السيد (٦٢) ، الصناديد (٤١)، الأناشيد (٤٢)، القيد (٤٥)، الأماليد (٤٨)، المقاليد (٦١) ، التجاليد (٦٥)
- استخدم الشاعر الجارم من الأسماء التي هي في الأصل صفة: محمود (١)، مجهود (٣١) و من الصفات المشتقة على غير وزن مفعول : رعديد (٢٠) ، ومن الأسماء الجامدة استخدم: جلمود (١٤)

الباب الثاني مدائح الأسرة العلوية

الفصل الرابع قصيدة الشاعر الجارم في رثاء الملك فؤاد

يبدأ الشاعر علي الجارم قصيدته بأربعة أبيات تصف حدثا جللا من أحداث الموت الجلل من دون إشارة إلى تخصيص الحديث بمصر أو بالملك فؤاد .

ما يقترن بالحدث الجلل

يتحدث الشاعر علي الجارم عما يلازم مثل الحدث الجلل من الهز وتأثر الركن والمصاب والارداء والأنين والوجد والعبرات والوجيب والخفقان والنشيج والسهاد والقلق ومن الحق أن نقول إن هذه الابيات الأربعة محكمة رائعة التعبير تمثل بمفردها لوحة جميلة التصوير دقيقة الوصف:

١. جَـلَّ هَـزَّ كـلَّ رُكْـنٍ وهَـدَّا ومصـــــابٌ رَمَـى الـقُـلـوبَ فـأَرْدَى
٢. كـلُّ صَـــــدْرٍ بـه أَنـينٌ وَوَجْـدٌ مُـرْسِـــلٌ خَـلْـفَـه أنِـيـنـاً ووَجْـدا
٣. عَبَراتٌ من ســـاكـبٍ ليس تَرْقَـا ووَجـيـبٌ مِـنْ خَـافِـقٍ لَـيْس يَـهْـدَا
٤. ونشـــيجٌ أقضَّ من مَضْـــجَعِ اللَّيْلِ ومـاجـتْ لـه الـكـواكِـبُ سُـــهْـدا

فزع مصر

ثم يتحدث الشاعر علي الجارم عن هذا المصاب من وجهة نظر مصر ، شعبا ودولة ، فيشير إلى أن مصر فزعت فزعة يطير لها العقل كما يقول إن دمعها فاض بغزارة، وتوقد شوقها، وتركت وقار الخباء، واجتمع الخلق محتشدين بسبب الحزن، وقد اضطربت بحار من البشر رائحة غادية، تسير كأنها الجبال يوم الحشر، وتنظر من فوق أسطح البيوت التي اضطربت بالحياة الإنسانية، كما اجتمعت في الميادين المكدسة، حتى إنك لا تستطيع رؤية الأرض، ومن الطريف بل من المدهش أن كل هذه الصور القصيرة التي يقدمها الجارم بلغته العالية، هي أيضا صور فولكلورية مصرية شائعة في حديث الناس عن مثل هذا الحدث .

٥. فزِعَتْ مصـــرُ فزْعـةً طَـارَ فيهـا كـلُّ عـقْـلٍ عـن الـرَّشَـــادِ ونَـدّا
٦. هَرَعَتْ ســاعةَ الوَداعِ تُفِيضُ الدَّمْعَ بَـحْـراً وتُـرسِـــلُ الشَّـــوقَ وقْـدَا
٧. أمّـةٌ هـالَهـا المُصَـــابُ فهـامَـتْ تســتَحِـثُّ الْخُطَـا شُـيوخـاً ومُرْدا
٨. خَرَجَـتْ مِن خِبـائِهـا كُـلُّ خَوْدٍ لم تُقنِّعْ رأســـاً ولم تُخْفِ خَـدَّا
٩. أعْجَلَتْها مُصـــيبَةُ الوَطنِ المفْجُوعِ أنْ تَـخْـتَـبِـي وأنْ تَـتَـردَّى
١٠. زُمَرٌ تَلْتَقِي على الْحُزْنِ والْيَـأْ سِ وحَشْـــدٌ بَـاكٍ يُزَاحِمُ حَشْـــدا
١١. وبِحَـارٌ من الأنَـاسِـــيِّ مـاجَـتْ مُـزْبِـداتٍ يَـجِشْـــنَ جَـزْراً ومَـدَّا
١٢. وجِبَـالٌ تَسِـيرُ في يَوْم حَشْـرٍ كـلُّ فِـنْـدٍ تَـراهُ يَـتْـبَـعُ فِـنْـدا
١٣. فوْق سَطْحِ البُيوتِ كالنَّحْلِ فانْظُرْ ثُـمّ إيَّـاكَ أنْ تُـحَـاوِلَ عَـدَّا
١٤. كلُّ بَيْتٍ قدْ عَافَ أحْجارَهُ الصُّـمَّ وأضْـحَـى دَمـاً ولَـحْـمـاً وجِلْـدا
١٥. والمَـيـادِينُ كُـلَّـهـا أُمَمٌ تُـزْجَـى كـمـا تُـكْـدَسُ السّـحـائـبُ رُبْـدَا
١٦. فـإذا شـــئـتَ أن تَرَى الأرضَ أرْضاً كنْتَ ممن يُحاولُ الأمْرَ إدّا

حزن الجماهير بالقلب والجلال والخشوع

يصل الشاعر علي الجارم إلى ذكر كلمة فؤاد في البيت السابع عشر، واصفا الفؤاد مشيراً بذلك من بعيد إلى اسم الملك فؤاد وهو يتحدث عن آثار حزن الجماهير فيما تملك من نَفَس وقلب، وفؤاد وشوق، وجهد ودعاء، ورعد وخشوع وجلال:

١٧. نَـفَسٌ واحـدٌ جـمـيـعـاً وقلـبٌ لـفـؤاد يَـئِـزُّ شَـــوْقـاً وصَـــهْـدا
١٨. ودُعـاءٌ يَمُرُّ بـالصَّـــدْرِ بَرْقـاً فـإذا انْسَـــابَ منـه أصْـبَحَ رَعْـدا
١٩. وخُشـــوعٌ من الْجَلالِ تَراءَى وجَـلالٌ مـن الـخشـــوعِ تَـبَـدَّى

الدوحة الظليلة التي تشيع السلام

ثم يبدأ الشاعر علي الجارم في البيت العشرين في وصف الجنازة نفسها فيشير إلى أن من حملوا الملك في نعشه حملوا معه آمال الشعب النادية فقد حملوا حامي الحقيقة والدين، وحملوا مصدر الإشعاع والهدى والسعد لمصر ، وهو يُسرع بالتساؤل لماذا لم يتوان الدهر بعض الوقت عن الملك فيتركه لمصر؟ فقد كان عهده لمصر بمثابة الدوحة الظليلة التي تشيع السلام ورغد العيش!

٢٠. حَـمَـلـوه وإنـمـا حَـمَـلُـوا آ مَـالَ شَـــعْـبٍ بزَهْرِهـا الغَضِّ تَنْـدَى
٢١. حَمَلوا حـامِيَ الحَقيقـةِ والـدِّينِ كـمـا تَـحْـمِـلُ الـمَـلائـكُ عَـهْـدا
٢٢. حَمَلوا كَوْكباً أشَــعَّ على مِصْــرَ سَــنـاً مُبْصِــراً وهَـدْيـاً وسَــعْـدا
٢٣. مـا عَلى الـدّهْرِ مَرَّةً لَوْ تَوانَى أو عَلَى الـدَّهْرِ ســـاعـة لو تَـهَـدَّا
٢٤. لَـفَـحَـتْ ريـحُـهُ أزاهـيـرَ آمـا لِ مـلأنَ الـوُجـودَ مِسْـــكـاً ونَـدّا
٢٥. وَعَـدَتْ كَفُّـه عَلَى دَوْحـةِ كـا نـتْ تَمُـدُّ الظِّلالَ في مِصْــرَ مَـدّا
٢٦. وَجَدَتْ مِصْـرُ في ذَراها سَـلاماً وطوَتْ في ظِلالِـهـا العَيْشَ رَغْـدا
٢٧. قدْ نَعَينا فَرداً بـه كـان عَصْــراً وفَـقَـدْنـا عَصْـــراً بـه كـان فَـرْدا

الملك كان فرداً يمثل عصراً

وبعد هذا كله ، يأخذ الشاعر علي الجارم في تلخيص الموقف الإنساني من وجهة نظره فيقول إن الملك فؤاد كان فرداً يمثل عصراً، ومن ثم فإن مصر فقد فقدت عصره الفريد، ولم لا ؟وقد فاقت مصر في عهده الكواكب في نورها، وضربت المثل في رعاية الملوك لممالكهم:

٢٨. دَوْلـةٌ فـاقـت الكواكِـبَ نُوراً وأنَـافَـتْ عَـلَـى الـكـواكـبِ بُـعْـدا
٢٩. علّمَـتْ كـلَّ مَـالِـكٍ كيف تُرْعَى أَمـمٌ حـاطَـهـا الـمُـلـوكُ تُـهْـدَى

رفع الشَّرقُ رأسَه بِفُؤَادٍ

ويصل الشاعر علي الجارم إلى أول بيت يأتي فيه على ذكر الملك فؤاد نفسه بالاسم فيصور مكانته في موضع جميل حين يقول في البيت الثلاثين:

٣٠. رفع الشَّـــرقُ رأسَـــه بِفُؤَادٍ ونَضَـــا عَنْـه يـأسَـــهُ فـاسْـتَجَدَّا

مصر كعبة وفود العلم

ويصف الشاعر علي الجارم أثر الملك فؤاد في نهضة الشرق ووثبته، وتحقيقه للأماني وقيادة مصر لهذه الوثبة، وللحركة العلمية وقد أصبحت مصر كعبة الوفود التي تبتغي العلم

٣١. ومَضَـــى يَسْـــبِقُ الْخَواطِرَ وثْباً وجَـرَى يُـجْـهِـدُ الأمَـانِـيَّ وَخْـدا
٣٢. وأتَتْ كلُّ أمّـة ترتجِي مِصْـــرَ وِدَاداً وتَـنْـهَـلُ الـعـلـم وِرْدا
٣٣. كَـعْـبـةٌ حَـجّـتْ الوُفُودُ إلـيـهـا تَسْـــتَـحِـثُّ الرِّكَـابَ وَفْـداً فَـوَفْـدا
٣٤. حَفَزَتْهـا لعَرْشِ مِصْـــرَ أمـانٍ بِـنَشِـــيـدِ الـوَلاءِ والْـحُـبِّ تُـحْـدَى

الهمة والعزم والحسم

و يبدأ الشاعر علي الجارم في وصف السمات المميزة لأداء الملك فؤاد فيشير إلى اجتماع الحزم والجهد في بيت جميل ، وفي البيت التالي يتحدث عن اجتماع الهمة والعزم ، وفي بيت ثالث يصف اجتماع الحسم (المضاء) والتحدي ثم هو يتحدث عن الالهام في بيت ، وعن الرشد في بيت تال، وعن الحث والتشجيع في بيتين تاليين ، ثم عن الجرأة والجلد:

٣٥. رأتْ حَزْمَ جـاهِـدٍ لَنْ يُبـارَى ورأتْ جُـهْـدَ حـازمٍ لـن يُـحَـدّا
٣٦. أبصَـــرُوا المُلْكَ في جَلالةِ مَعْنا هُ يُبـاهي السَّـــمَـاءَ عِزّاً ومَجْـدا
٣٧. أبْصَـــرُوا دَوْلـة ومُلْكـاً كَبِيراً ومِرَاســـاً يُعْيي الزَّمـانَ وجُهْـدا
٣٨. هِـمّـةٌ تَـفْـرَعُ الـنُّـجـومَ وعَـزْمٌ ســلَـبَ السَّـــيْفَ حـدَّه والفِرنْـدَا
٣٩. ومَضَـــاءٌ في الحَـادِثـاتِ برأيٍ فَضَـــح الصُّـــبْحَ نُـورُه وتَـحـدَّى
٤٠. يَســتمدُّ الإلهامَ من عالِمِ الغَيْبِ وأجْـدِرْ بـمـثـلـه أنْ يُـمَـدّا
٤١. دَفَعَ الشـــعْبَ للســبيل فكـانت من سَـــنـا هَـدْيـه أمـانـاً ورُشْـــدا
٤٢. مُلْهِـباً عَزْمَـه إذا اجتـازَ غَوْراً مُسْـــتَـحِـثّـاً إذا تســـلَّـقَ نَـجْـدا
٤٣. كلّمـا خَـارَ أجزأتْ بســمـةٌ مِنْـه فَـمـدَّ الـخُـطَـا حَـثِـيـثـاً وجَـدّا
٤٤. ومَضـــى كالقَضَـــاءِ يَهْوِي لِمَرْمَا هُ جَـريـئـاً مُـجَـمَّـعَ الـقَـلْـبِ جَـلْـدَا

صلادة لا تتأثر بالشوك

ويصل الشاعر علي الجارم إلى بيت يثبت تفوق قدراته المعجمية (وفهمه للمفردات العلمية الفيزيقية) إلى حد مذهل حين يتحدث عن الصلادة التي تميز بها الملك فؤاد فبهر الصخر، ويردف في البيت الثاني على تأكيد فهمه لهذه الصلادة بأن يشير إلى أن الشوك لا يؤثر فيها إلا كما الورد :

٤٥. يَبْهَرُ الصَّخرَ أنْ يَرَى منه صَلْداً آدمـيَّ الـرُّواءِ يَـقْـرَعُ صَـــلْـدا
٤٦. لا يُبـالي إذا سَـــعَى للمعَـالي خَـبَـط الشـــوْكَ أم تَـوطّـأ وَرْدَا

الهداية والقيادة

ويعود الشاعر علي الجارم إلى توظيف اسم الملك في البيت السابع والأربعين باعتباره مصدر الهداية والقيادة للجند الذين يتمنون غاية بعيدة، وهو بالنسبة لهم أكثر من قائد فهو الروح والقلب والكف والزند وهو القادر على الإقناع بالمستحيل، وهو باعث الأمل بنظرة، وهو أيضا محيي الآمال المنقطعة:

٤٧. وفُـؤَادٌ أمـامَـه خَـيْـرُ هـادٍ قـادَ لِـلْـغَـايـةِ الـبَـعـيـدَةِ جُـنْـدا
٤٨. كـانَ لِلْمُقْـدِمين رُوحـاً وقلْبـاً ولِـرَكْـب السَّـــارِيـنَ كَـفَّـاً وزَنْـدا
٤٩. لو دَعَـأهُم إلى النَّجوم لَسَـــاروا خَـلْـفَـه يُـزْمِـعُـون لـلـنَّـجْـمِ قَصْـــدا
٥٠. وإذا اليـأسُ مَسَّـــهُم كـان عَطْفاً وسَـــلامـاً عَـلَـى الـقُـلُـوبِ وبَـرْدا
٥١. نَظْرَةٌ مِنْـه تَبْعَـثُ الأمَـلَ الوَا نـي وتُحْيِي منـه الـذي كـان أوْدَى

الغلاف الحامي والصمام الباقي

ثم يتحدث الشاعر علي الجارم عن قيمة الملك فؤاد بالنسبة لوطنه ، فيصوره بمثابة الغلاف الحامي لمصر والصمام الباقي لأمنها، ويقول إنه كان هو القادر على أن يجعل من السيف غمدا (كناية على حال السلام المستقر) والغمد سيفا (كناية عن حالة الحرب العاجلة).

٥٢. كان رِدْءاً لِمصْـــرَ إنْ جَارَ دهْرٌ وصِـــمَـامـاً لأمْـنِـهـا إنْ تَـعَـدَّى
٥٣. ســـاسَ بـالحِكْمـةِ البِلاَدَ فكـانَـتْ من عَوَادِي الزَّمـانِ دِرْعـاً وسَـــدّا
٥٤. فَهْو إنْ شَـاءَ صَـيّر الغِمْدَ سـيْفاً وإذا شـــاء صَـــيَّر السَّـــيْفَ غِمْـدَا

رحمة الله هي التي أعدته

ويتحدث الشاعر علي الجارم عن مؤهلات الملك فؤاد للحكم الرشيد فيزعم أن رحمة الله أشملته فأعدته فاستحق الحمد والشكر بفضل رعايته حق الملك، وكرمه وسداده

٥٥. قـد أعـدّتْـه رَحْمـةُ اللهِ لِلْحُكْمِ كَـرِيـمـاً مُـبَـارَكـاً فـاسْـتَـعَـدّا
٥٦. ورَعَى اللهَ في الرّعِيّـةِ والملـكِ فـوفَّـى حـقَّ الإلـهِ وأَدَّى
٥٧. أينَما سِـرْت مَشْـرِقاً تَلْقَ شُـكْراً أو تـوجَّـهْـتَ مَـغْـرِبـاً تَـلْـقَ حَـمْـدا

إنّما النَّاسُ بالملوكِ

ثم يقدم الشاعر علي الجارم معنى جميلا بيتين من بيوت الحكمة الجارمية المصاغين على نحو جيد وجميل أيضاً

٥٨. وإذا اللهُ رَامَ إِصْـلاحَ شَـعْـبٍ سَـلَـكَ القَـائـدُ الطَّريقَ الأسـدَّا
٥٩. إنّمـا النَّـاسُ بـالملوكِ وأَغْلَى الْمُلْـكِ شَـأواً مـا كـانَ حُبّـاً وَوُدّا

كان حازما في كل شيء

ويعود الشاعر علي الجارم للحديث عن نشاط الملك فؤاد وأسلوبه في إدارة الدولة فيراه حازما في كل شيء إلا الموت بالطبع:

٦٠. رَد بـالْحَزْم كـلَّ خَطْـبٍ سِـوَى المَوْتِ ولِلْمَوْتِ صَـوْلَـةٌ لَنْ تُرَدّا

وصف الموت وحكمه

ويستطرد الشاعر علي الجارم من هذا البيت إلى ثلاثة أبيات جيدة من شعر الحكمة في وصف الموت وصفا شبيها إلى حد بعيد بما كان يصوره المتنبي شاع العربية الأكبر:

٦١. والفَتَى في الْحَيـاةِ رهْنُ عَوَادٍ لا يَـرَى دُونَ مُـلْـتَـقَـاهُـن بُـدّا
٦٢. حَكَمَ الموتُ في الأنَـامِ فَسَـوَّى لـم يَـدَعْ سَـيِّـداً ولـم يُـبْـقِ عَـبْـدا
٦٣. بَيْنمـا يَسْـحَقُ النِّمـالَ تَراهُ بـاسِـطـاً كـفَّـه لِيَقْـنِـصَ أَسْـدا

وأخيرا وفي البيت الرابع والستين يبدأ الشاعر علي الجارم في مخاطبة الملك فؤاد وكأنه كان يقدم بين يدي مخاطبته بثلاثة وستين بيتا كاملة، وهو يخاطبه بقوله : يا مليكي ، ويعترف له بأن الحزن يتجدد عليه، وأن الحزن يحاوره، فإذا قال هو نفسه

إن الحزن خف رد عليه الحزن بأنه سيبدأ، وهو على طريقة الإقرار بالفضل يسأل الملك أسئلة معهودة مشيراً إلى عز الملك الواسع العطاء، والهبات المزجاة للعلم، وكثرة القاصدين وكثرة الصلات، وهو يتحدث أيضا عن الجبين الذي يضئ بالنور وعن الحديث الذي يقطر بالشهد، ويختم هذا كله بتقرير آسف بأننا قد فقدنا كل هذا.

٦٤. يا مَليكي والْحُزْنُ يَطْحَنُ نَفْسي كلّما قُلْتُ خَفَّ قال سَأَبْدا
٦٥. أيْنَ عزُّ المُلْكِ الّذي كانَ للآ مالِ في سَوْحِهِ مَرَاحٌ ومَغْدَى
٦٦. أين تلكَ الهِبَاتُ للعِلْمِ تُزْجَى كلُّ رِفْدٍ فيها يُزَاحِمُ رِفْدا
٦٧. أينَ أينَ القُصّادُ في ساحةِ القَصرِ وأين الصِّلاتُ تُعْطَى وتُسْدَى
٦٨. أين ذاكَ الْجَبِينُ ينضَحُ نُوراً أين ذاكَ الْحَدِيثُ يَقْطُر شَهْدا
٦٩. قد فَقَدْناهُ والمُصَابُ جَلِيلٌ وجَمِيلُ العَزَاءِ بالْحُرِّ أجْدَى

حتمية الموت و الدمع

ثم يعود الشاعر علي الجارم إلى شعر الحكمة عودا منيبا بطريقته العابدة الخاشعة فيستفتح البيت السبعين من قصيدته بالترجيع والحديث عن حتمية الموت، ثم يردف في البيت التالي بالاعتذار عن مغالبة الدمع للفتى يقصد نفسه.

٧٠. نحنُ للهِ راجِعُون وكل بالغٌ في مَجَالةِ العُمْرِ حَدّا
٧١. غَير أنّ الفَتَى يُغَالِبهُ الدَّمْعُ فلا يستطيعُ للدَّمْعِ صَدَّا

كل مهد يصير لحدا

ثم يقدم الشاعر علي الجارم في البيت الثاني والسبعين بيتا من أروع أبياته وأبسطها في هذه القصيدة

٧٢. كلُّ مَهْدٍ يَصيرُ مِنْ بَعْد حينٍ قَصُرَ العُمْرُ أو تَطَاولَ لَحْدَا

يشبه مدحه للملك بقلادة

ويختم الشاعر علي الجارم قصيدته بالإشارة إلى فخره بأنه مدح الملك فؤاد، فيقول إن مدحه له ملأ الوجود شدوا، وأن شعره ازدهى بكونه مدح جلائل الاعمال، ويقول

إن الله كتب عليه أن يرثي الملك ويبكيه على نحو ما مدحه من قبل، وهو يشبه مدحه للملك بقلادة على حين يشبه دموعه في رثائه بالعقد":

٧٣. قَدْ مَلأْتُ الوُجودَ شَـدْواً بِمَدْحِيكَ وهَـل غيْرُ مِزهَرِي بـكَ أشْـدَى
٧٤. خَـالـداتٌ مِنَ الجلاَئـلِ أوْلَـتْ شِـعْرِيَ المُزْدَهي بوصْـفِك خُلْدا
٧٥. كَـتـبَ اللّهُ أنْ يَـعُـودَ رثـاءً وبُـكَـاءً يُـدْمِـي الـعـيـونَ وكَـمْـدا
٧٦. قـد نـظَـمْـتَ الـعُـلاَ قِلادَةَ دُرٍّ فَـنـظـمْـتُ الـدّمـوعَ أرْثـيـكَ عِـقْـدا

الأمل في الابن الملك

ولا يقف الشاعر علي الجارم عند هذا الحد في ختام قصيدته فلا بد بالطبع من الحديث عن الأمل في الابن الملك الذي يخلف أباه ، وهو يجيد هذا التعبير حيث يقول إن أمل الشعب في الفاروق أحيا أمله هو ، فقد قرأ الشعب في ملامح الملك الجديد الجلال والجد والمجد والنبل وقد أصبح ندا لبدر السماء ومثيلاً للعلا.

٧٧. أمَلُ الشَّـعْـبِ في خَليفَتِك الْفَـا رُوقِ أحْـيَـا آمـالَـه وأجَـدّا
٧٨. قرأ الشَّـعْـبُ في مَلاَمِحِه الغُرِّ سُـطـورَ الـمُـنَـى وأبْصَـر جَـدّا
٧٩. ورأى فيـه نَبْعـةَ المجـدِ والنُّبْـلِ أبـاً مُـفْـرِدَ الـجـلالِ وجَـدّا
٨٠. لم يجِـدْ للـعُلاَ سـواه مَثِيلاً ولـبَـدْرِ السـمـاءِ إلاَّهُ نِـدّا

المليك المسجى والمليك المفدى

يصل الشاعر علي الجارم في البيت الأخير من ابيات هذه القصيدة الجميلة إلى قمة الصناعة الشعرية حيث يصوغ بيتا من شطرتين، يترحم في أولاهما على الملك المسجى ويدعو في ثانيهما للملك المفدى، وكانه يثبت أنه قادر على صياغة أفضل من صياغة على ماهر باشا الشهيرة حين قال : مات الملك . يحيا الملك .

٨١. رحمـةُ اللّهِ للمليـكِ المُسَـجَّى ورَعَـتْ عينُـه المـليـكَ المُـفَـدَّى

الفصل الخامس

قصيدة إسماعيل العظيم للشاعر على الجارم

نبدأ حديثنا عن قصيدة "إسماعيل العظيم" التي أنشدها الشاعر علي الجارم في الخديو إسماعيل بأن نذكر إنها إحدى قصيدتين في الخديو إسماعيل، والثانية لامية من عشرة أبيات بعنوان "أبو الأشبال".

القصيدة تمدح الملكين فؤاد وفاروق أيضا

أما هذه القصيدة الطويلة فإنها ليست خالصة تماماً للخديو إسماعيل ففيها ١٣ بيتا (هي خاتمتها) من أروع مدائح الجارم في الملك فاروق، صحيح أنه يمدح الخديو إسماعيل بابن من أبنائه وهو فاروق لكنه لم يمدح من أبناء إسماعيل إلا الملك فؤاد في ثلاثة أبيات والملك فاروق في ١٣ بيتاً.

البدء بوصف العظمة نفسها

يبدأ الجارم قصيدته بمقطع طويل يتحدث فيه عن العظمة على وجه العموم مع تخصيص هذه العظمة بطابع مما أُشيع عن الخديو إسماعيل من العظمة ، وكأنه يبدأ بوصف العظمة نفسها مجردة من اسم الخديو إسماعيل لكنها موصوفة بصفات هذا الممدوح الذي هو عنده معلوم من دون أن يصرح باسمه .

وهو يرى أن الخديو العظيم حسام مهاب، وطود من العز، وزعيم يدين له الناس بالولاء، بل إن في ضريحه أيضا سرٌ سماوي له من جناحي جبريل قباب (ولا أعرف كيف استساغ الشاعر الجارم تقديم هذه الصورة مبتسرة على هذا النحو فلا هو أحيا الفعل فيها ولا في حركتها ولو بالمبالغة ولا هو جعلها رمزاً.. .

الكلمات المفردة في بداية الأبيات الستة الأولى

يبدأ الشاعر الجارم كل بيت من الأبيات الستة الأولى بكلمات مفردة يشرح بها موقفه من الممدوح والكلمات هي: حسام، وطود ، وسر ، وقبر ، وكنز ، وزهر:

١. حُســـامٌ لـه مجـدُ الخُلُودِ قِرابُ يحـوِّم شـــعـري حـولـه فـيـهـابُ
٢. وطَودٌ من العِزِّ الأشـــمِّ عَنَتْ لـه وُجـوهٌ، ودانـتْ بـالـوَلاءِ رِقـاب
٣. وسـرٌّ سـمـاويٌّ ثَوى في ضـريحه لـه من جَنَـاحَيْ جَبْرَئيـلَ قِبـاب
٤. وقبرٌ كمحرابِ الصـــلاةِ مُطهَّرٌ عـلـيـه نـعـيـمٌ وارفٌ وثـواب
٥. وكَنْزٌ بـه من جَنَّـةِ الْخُلْـدِ دُرَّةٌ تـردُّ ثـمـينَ الـدُّرُّ وهـي سِـــخـاب
٦. وزَهْرٌ من الآمالِ رفَّ بروضـــةٍ بها الأرضُ مسـكٌ، والنسـيمُ مَلاب
٧. إذا جـاوزَتْهَـا للرَّبـابِ غمـامـةٌ ســقـاهـا من الحـبِّ النَّـدِيِّ رَبـابُ
٨. قلوبُ بني مصـــرٍ خوافقُ حولَها لـهـا كـلَّ حـيـنٍ جَـيْـئـةٌ وذَهـاب

معنى خلود الذكرى

ثم يلجأ الشاعر علي الجارم للعموميات بدأ من البيت التاسع فيذكر عدداً من المعاني المطروقة والمألوفة التي تتحدث عن خلود الذكرى، وفي البيت الثاني عشر يصوغ بيتا يُخصصه له دون نص ويضمنه تعبيره عنه بأنه أحيا آمال الأمة حين كانت يبابا.

٩. إذا غاب شـخصُ الَعْبَقريِّ برَمْسِـه فليس لفضـــلِ العبقريِّ غيـاب!
١٠. وإن حَجَبتْ بِيض الأيـادي مَنِيَّـةٌ فـلـيـس عـلـى آثـارهـنّ حِـجـابُ!
١١. وكم من فتًى جاز الحياةَ وذكرُه لـــه كـلَّ يـومٍ زَوْرَةٌ وإيـاب
١٢.ومـا مـات مَنْ رَدَّ الحيـاةَ لأمَّـةٍ وأحـيـا بـهـا الآمـالَ وهـي يَـبـاب

يضمّن شعر رابعة مع اختلاف المناسبة

يعود الشاعر علي الجارم إلى العموميات في البيت الثالث عشر ويضمن شعر أبي فراس الحمداني المنسوب إلى السيدة رابعة العدوية في شطره الثاني تضمينا ذكيا وإن اختلفت المناسبة:

١٣. إذا المرءُ لم يُخْلِدْه فضـــلُ جهادِه «فكـلُّ الـذي فوق الثَّـرابِ ثُـراب»

الوثب فوق الزمان

ويأتي الشاعر علي الجارم على ذكر الخديو إسماعيل بالاسم للمرة الأولى في البيت الرابع عشر واصفا طبيعة عهده بالوثب فوق الزمان وأحداثه، ثم يتحدث عن طموحه، ونرى الشاعر الجارم حفيا بالحديث عن الطموح على نحو ما استفتح قصيدته عن إبراهيم بطل الشرق الذي هو والد إسماعيل، وهو يعود إلى العموميات في الأبيات الخمسة التالية من الخامس عشر إلى التاسع عشر:

١٤. وهل مثل إسماعيلَ في الناسِ عاهلٌ ... له فوق أحْداثِ الزمانِ وِثاب؟
١٥. طموحٌ له في ذِرْوَةِ الدهرِ مأرَبٌ ... وفوق مَناطِ الفَرقَدَيْنِ طِلابُ
١٦. إذا صحَّ عزمُ المرء فالبحرُ ضَحْضَحٌ ... وإنْ خار فالنُّضْحُ اليسيرُ عُباب
١٧. وليست شِباكُ العزِّ إلَّا عزيمةً ... وما المجدُ إلا صولةٌ وغِلاب!
١٨. تَمُدُّ الليالي للجريءِ زمامَها ... وتعنو له الأيامَ وهي صِعاب
١٩. وما كلُّ مَنْ أرخَى العِنانينِ فارسٌ ... ولا كلُّ داعٍ للنهوضِ مُجاب!

مصر لبت دعوة إسماعيل وهمته

ثم يبدأ الشاعر علي الجارم في البيت العشرين في مقاربة إنجازات إسماعيل في مصر مشيراً إلى كثرتها، وهو يتحدث عن أن مصر لبت دعوة إسماعيل وأسرعت الخطى خلفه متحملة الشوك وصعاب الطريق، وكانت الهمة تجبر وهنها، على نحو ما كان ذكاؤه يضيء طريق المعالي إذا أظلم:

٢٠. إذا ما عَددْنا مأثُراتِ يمينه ... على مصرَ لم ينفدْ لهنّ حساب
٢١. دعاها فسارتْ خلفَهُ تُسْرِعُ الْخطَا ... وهِمَّتُها للمُعْضِلات رِكاب
٢٢. فما الشوكُ في أقدامِها حين صممتْ ... بشوكٍ، ولا صُمُّ الهضاب هِضاب
٢٣. إذا وَهَنَتْ أذكى لَظَى رَغَباتِها ... هِمامٌ له عند النجومِ رِغابُ
٢٤. وإن أظلمت طُرقُ المعالي أنارها ... وبينَ شكرٍ وتكبيرٍ وتحميد

مصر رأت في إسماعيل حاكماً لا نظير له

ويقرر الشاعر علي الجارم بوضوح في البيت الخامس والعشرين أن مصر أعجبت بإسماعيل ورأت فيه حاكماً لا نظير له، وأنها تقبلت جرأته وقوته وإنجازه ونهضته

ووجهه الغربي الذي أضفاه عليها، وهو يتحدث عن كثرة منابر العلوم والفنون في عهد إسماعيل ، وعن انتشار المعالم والعجائب والجهد :

٢٥. رأتْ مصـــر فيه عاهلًا عزَّ نِدُّه ومن أيْن للبـدرِ المنيرِ صـــحـابُ؟
٢٦. حباها أبو الأشـبال جُرْأَةَ ضَـيْغَمٍ لـه ظُـفرٌ يـفرِي الـخطـوبَ ونـاب
٢٧. وأزْلفهـا مـلءَ النواظِرِ جَنَّـةً تميد بهـا الأغصـــانُ وهي رِطـاب
٢٨. وألبسـها من نهضـةِ الغربِ حُلّةً وكم زانـتِ الغيـد المـلاحَ ثيـاب!
٢٩. ففي كـل حَيٍّ للعلوم منـابرٌ وفـي كـلِّ ركنٍ للـفنـونِ رِحـاب!
٣٠. وأين رميتَ الطّرْفَ تلقَى معالِمًا ســوامقُها فوقَ الســحابِ ســحاب
٣١.عجائبُ صُنْعٍ يصغُرُ الدهرُ دونَها وكـلُّ فعـالِ الخـالـدين عُجـابُ!
٣٢. وجُهْدٌ من الفولاذِ مـا كَلَّ زَنْدُه وصـــادقُ عزمٍ ليس فيـه كِـذاب

العبقري لا يخضع لحسابات الأنصبة

ويختم الشاعر علي الجارم هذا المقطع الطويل أفضل ختام بالبيت الثالث والثلاثين وفيه يقرر أن جهد العبقري لا يخضع لحسابات الأنصبة وحدودها القصوى:

٣٣. وللجُهدِ في الدنيا نصـابٌ وطاقةٌ وليس لـجُـهـدِ العبقريِّ نِصـــاب!

يذكّر الخديو بافتتاح قناة السويس

ثم يبدأ الشاعر علي الجارم المقطع الثاني من قصيدته بمخاطبة إسماعيل مطلقاً عليه لقب "أبا مصر" مع أن إسماعيل ترك حكم مصر وهو لا يزال شابا، لكن للشاعر الجارم مبرراته في إضفاء صفة الأبوة على إسماعيل بسبب إنجازاته.

وهو يذكّر الخديو إسماعيل بافتتاح قناة السويس ، وما اشتمل عليه الحفل من الحشد والثناء وفرحة مصر وبهجتها بالإنجاز وكرمها في استضافة ضيوفها بالموائد التي لم تمر بأوهام حاتم، وبمواكب العز، وهو يبالغ مبالغة شعرية لطيفة في ختام هذا المقطع يقول فيها إن لعاب الشمس سال من روعة الاحتفال وزهوه.

٣٤.أبا مصرَ، هل تُصغي وللشعرِ دَمعَةٌ بهـا الحـبُّ صَـــفْوٌ، والوفـاءُ مُـذاب؟
٣٥. أتـذكُرُ يومًـا بـالقنـاةِ وقـد ســعتْ شُـــعوبٌ، وســالتْ بالملوكِ شِـعاب؟

٣٦. وأنت تؤُمُّ الْحشْـــد جذلانَ هانئًا ونجمُك لم يحجبْ سَـــناه ضـــباب
٣٧. ومصـــر بمحييهـا تتيـهُ وتنثني كمـا لعبـتْ بـالعـاشـــقين كَعَـاب
٣٨. موائـدُ لو مرَّتْ بـأوهـامِ حـاتمٍ رأى أنّ مـدحَ المـادحين سِـــبَـاب
٣٩. وموْكِبُ عِزٍّ مـا رأى النيلُ مثلَـه ولا خَطّـه في الســـابقين كِتـابُ
٤٠. تمنَّـت نجومُ الأفْق رَوْعَـةَ زَهوِه وســـال لشـــمسٍ أبصـــرتْـهُ لُعَـاب

الشاعر يقدم حسابا عقليا مختلفا

يستهل الشاعر علي الجارم مقطعه الثالث مخاطبا إسماعيل بأنه عاش خمسين عاماً ومن المهم أن نستطرد هنا لنقول إن عمر الخديو إسماعيل بالسنوات الميلادية كان خمسة وستين عاماً ١٨٣٠ ـ ١٨٩٥ وأنه تولى الحكم وهو في منتصف عمره بالضبط أي في الثالثة والثلاثين ١٨٦٣ وبقي ١٦ عاما حتى ١٨٧٩ ثم بقي مثلها في المنفى ١٨٧٩ ـ ١٨٩٥ أما الشاعر الجارم فيقدم حسابا عقليا مختلفا يجعل فيه الخديو إسماعيل وقد عاش خمسين حجة، وهو يتحدث عن خلافة أبناء إسماعيل له ويصفهم بصفات متعددة من الصرامة والكرم.

ويقفز الشاعر الجارم على عهود الخديو توفيق و ابنه الخديو عباس حلمي و أخيه السلطان حسين كامل (وكل هؤلاء من أولاد إسماعيل) ليصل مباشرة إلى الملك فؤاد ويُثني على الملك فؤاد بطريقة مجملة في ثلاثة أبيات (من البيت الرابع والأربعين وحتى السادس والأربعين) .

٤١. تفيـأتَ ظـلَّ الله خمســـين حجـةً وجـنَّـاتُـه لـلـعـامـلـيـن مَـثـاب
٤٢. وأدرك مصـرًا من بنيك صَـوارمٌ مواضٍ إذا اشـــتـد الزمـانُ صِـــلَاب
٤٣. كرامٌ إذا نُودُوا أجـابوا، وإن هُمُ رَمَوْا جبهـةَ الرأي البعيـدِ أصـــابوا
٤٤. وهـل كفؤادٍ في البريَّـةِ مـالـكٌ؟ وهـل كلُبَـابِ المجـد فيـه لُبَـاب؟
٤٥. لـهُ عـزمـةٌ وثّـابـةٌ عَـلَـويَّـةٌ تردُّ صُـــرُوفَ الـدهرِ وهي حرَاب
٤٦. إذا ما امترى في المعجزاتِ مكابرٌ فســـيـرتُـه لـلـمـمـتـريـن جـواب

مدح فاروق في زيارته للأراضي المقدسة

ثم يتفرّغ الشاعر علي الجارم لمدح ممدوحه المفضل الملك فاروق في ١٣ بيتا من الأبيات رائعة المعاني التي تتحدث عن عزم الملك فاروق ومجده وهيبته ومضائه وإقدامه وجوده وصولته وآماله وطموحه وشبابه .

ثم يتحدث عن زيارة الملك فاروق لرضوى في الأراضي المقدسة ويصف هذا الطريق بأنه سعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمثل لهديه شوقا وحباً وخشوعا .

ويعود إلى وصف الملك فاروق بالحصافة وسداد الرأي والصولة والقدرة على تأليف العرب من حوله، وتحقيق الإنجازات إنجازاً بعد آخر، والإشارة إلى عظمة إنجازاته وكرمه فيها .

ويصل الشاعر الجارم في المبالغة في مدح الملك فاروق في هذه القصيدة إلى أن يقول إنه هو (أي الشاعر نفسه) ومعشر من ينتمي إليهم عتبوا على الدنيا حيث افتقدوا الخصام والعتاب، في ظل الملك فاروق لذي أظلهم وجلب العلا لهم:

٤٧. ومَن مثلُ فاروقٍ وللعرشِ عزَّةٌ ... وللمُلْكِ والمَجدِ الأثيلِ مَهَابُ؟
٤٨. مضاءٌ وإقدامُ وجودٌ وصولَةٌ ... وآمالُ حُرٍّ طامحٍ وشبابُ
٤٩. سعَى لرسولِ الله يحدوه شوقُه ... وللشوقِ والحبِّ الصميمِ جِذاب
٥٠. يناجيه فَيَّاض المدامِعِ خاشعًا ... صَموتًا، وصَمْتُ الخاشعين خطاب
٥١. رأى فيه رَضْوَى مثلَه في ثباتِه ... وحيَّاه من رَحب البقيعِ جَنَاب
٥٢.حصيفٌ له في موقف الحقِّ صَوْلةٌ ... ورأيٌ إذا غُمَّ الصوابُ صوابُ
٥٣. يجمِّع شملَ العُرْبِ في ظلِّ وَحدَةٍ ... كما جَمَع الأُسْدَ الضراغمَ غاب
٥٤. إذا ابتسموا فالباتراتُ بواسمٌ ... وإن غضبوا فالباتراتُ غِضاب
٥٥. وفي كلِّ يومٍ مِنَّةٌ بعد مِنَّةٍ ... إذا ما انقضى بابٌ تفتَّح بابُ
٥٦. وكلُّ أيادي غيرِه حُلْمُ حالمٍ ... وكل نوالٍ من سواه سَراب
٥٧. عتبنا على الدنيا فمذ أشرقتْ به ... تقضَّى خِصامٌ بيننا وعِتاب
٥٨. وصُغنا له من كل ما تُبدعُ النُّهَى ... روائعَ، لم يُبذَلْ لهنَّ نِقَاب
٥٩. فلا زال موفورَ الجلالِ مُسدَّدًا ... يُجيبُ إذا تدعو العُلا وَيُجاب!

الفصل السادس

قصيدة الشاعر الجارم في مئوية إبراهيم باشا

ربما جاز القول بأن قصيدة الشاعر على الجارم ١٨٨١-١٩٤٩ البائية في مئوية إبراهيم باشا ١٧٨٩- ١٨٤٨ التي حملت عنوان "إبراهيم بطل الشرق" هي أفضل قصيدة تذكارية نظمها شاعر في حكام أسرة محمد علي، نقصد بكلمة تذكارية انها قصيدة أنشئت بعد ان تحول "المرثي" أو "الممدوح" بمرور السنين إلى ذكرى، ونحن نعرف ان هذه القصيدة نظمت بعد مائة عام من وفاة إبراهيم باشا، ومن ثم فإن حجاب المعاصرة قد زال، كما أن محتواها الموضوعي كان لا بد ان يتناول عرضا فلسفيا لما بقي أثره على الرغم من مضي الأيام، وبقدر ما يمثل هذا صعوبة على شاعر الرثاء فإنه في الوقت نفسه يُتيح له أن يصوغ الرثاء على طريقة الصناعة المعملية الخالية من إجهاد الزمن أو إلحاح الوقت.

الطموح والعزم

يبدأ الشاعر علي الجارم قصيدته من البيت الأول بالإقرار المسلم تماماً بعظمة إبراهيم باشا في طموحه وعزمه! ويسارع الشاعر علي الجارم في البيت الثاني بالحديث عن طبيعة المجد ، وما يقتضيه المجد من مغامرة ودوي وسعي إلى انتصار الراية وما يقود إليه هذا كله من الخلود الذي يرفع شأن صاحبه..

وهكذا يصل الشاعر علي الجارم في سهولة في البيت السابع والثامن إلى حكمه الجازم بخلود إبراهيم باشا وفضله على مصر ورفع شأنها بين الأمم.

١. طُموحٌ! وإلَّا ما صِـــراعُ الكتائبِ؟ وعَزْمٌ! وإلَّا فيمَ حَثَّ الركَـائـبِ؟
٢. إذا المجد لم يترك وراءَكَ صَـيحةً مُـدَوِّيَـةً، فـالـمـجـدُ أوهـامُ كـاذبِ
٣. يخَوضُ الهمـامُ العبقري بِعزمـهِ ظلامَ الفيـافي في ظلامِ الغَيـاهـبِ
٤. وأرْوَعُ مـا تهفو لـه العينُ رايـةٌ تُـداعبهـا الأرواحُ في كَفِّ غَـالـبِ
٥. وكم بَطلٍ في الأرضِ غابَ وذكرهُ يُحلِّق فـي الآفـاقِ لـيسَ بـغـائـبِ!

٦. يُـدوِّنُـه الـمـيـلادُ بـيـنَ لِـداتِـهِ ويكـتُـبـه الـتـاريـخُ بـيـنَ الـكـواكـبِ
٧. وما مَاتَ من أبقى لمصـــر مجادةً تُطـاول أعنـانَ الســمـاءِ بغـاربِ
٨. حمَـاهَـا بعزمٍ لو رأَتْـه قَواضـــبٌ لأضـحَى سـناهُ حسـرةً في القواضـبِ

من ذا حقق ما حققه إبراهيم باشا من البطولة؟

ثم يتساءل الشاعر علي الجارم في البيت التاسع (من قبيل التأكيد على ما ذهب إليه) عمن حقق ما حققه إبراهيم باشا من البطولة على الرغم من مواجهته صواعق المدافع بخطورتها وأصواتها الفظيعة؟ وهو يجيب في البيت الثاني عشر بأن ينصح من سألهم أن يسألوا مدينة عكا عن انتصار إبراهيم باشا الذي حقق فيها ما لم يُحققه نابليون من نصر مؤزر .

إبراهيم باشا و نابليون

وهو يقارن بين موقف عكا من إبراهيم باشا ومن بونابارت مقارنة حماسية رائعة في البيتين العشرين والحادي والعشرين فيجعل نابليون يفرُّ جبنا ويعاتب الأقدار، ولكن إبراهيم باشا يحقق الإنتصار بسهولة وكأنه يلعب.

٩. ومن مثـل إبراهيم إن حمي الوغَى وأمطرت الأرضُ الســماءَ بحاصــبِ
١٠. صَـــواعِقُ تلقى للحتُوفِ صَـــواعقًا وسُـــحْـبٌ عُجَـاج تلتقي بســحـائـبِ
١١. وزمزمـةٌ تُنســي الرعودَ هزيمَهـا وتـثـقـب آذانَ الـنـجـومِ الـثـواقـبِ
١٢.ســلُوا عنه «عكا» إنَّهـا إن تكلّمتْ معَـاقلُـهـا حـدثتكُمْ بـالـعجـائـبِ
١٣.رماهَا بجيشٍ لو رمَى مشرِقَ الضُّحى ويعرف بـالإلهَـام ســرَّ العواقـبِ
١٤. رمـاهَـا فتى لا يعرف الشـــك رأيه على اللســـانِ ولا حرٌّ بمصـــفود
١٥. ممنعـةٌ مـا راضَـــهـا عزمُ قـائـدٍ وعـذراءُ لم تَظْفَرْ بهـا كَفُّ خَـاطـبِ
١٦. أتـاهَـا «بنوبـارتٌ» يُداوي نـدوبَـهُ وآبَ يصُـــك الوجه صَـــكّ النوادِبِ
١٧. أتـاهَـا يجُر الـذَّيـلَ في تيـه واثقٍ فعـادَ يَجُر الـذَّيـلَ في خِزي خَـائـبِ
١٨. رآهَا وفي العنقودِ والكرم ما اشْـتـهَى وأيْنَ من العنقُودِ أيـدِي الثعـالـبِ؟
١٩. وكم وضَـعت مِنْ إصْـبعٍ فوقَ أنفها! وكم غمزَتْ أســوارُهَـا بـالحواجـبِ!
٢٠. رأت فـاتحَ الـدنْيـا يفرُّ جبـانـةً ويُلْقِي على الأقـدار نظرةَ عـاتـبِ
٢١. ولكنَّ إبراهيم في الروْعِ كوكـبٌ إذا انـقضَّ فـالآطـام لُعبـة لاعـبِ

معركة نصيبين

ويبدأ الشاعر علي الجارم في استعراض بطولات إبراهيم باشا في معاركه الشهيرة، فيذكر له نصره في معركة نصيبين على الأتراك والألمان رغم احمرار مخالبهم (وهي صورة طريفة الدلالة) ويصل في البيت الرابع والعشرين إلى أكثر أبيات الشعر حماسة في وصف معركة نصيبين حيث يصور ارتياع البوسفور وارتجاج العرش ، وصياح من يسميهم ذئاب الشر.

٢٢. ويوم «نصـيبين» التي قامَ حولها بنُو التركِ والألمـانُ حُمْرَ المخَـالـبِ
٢٣. عَلاهَا فتى مصرٍ بضربةِ فيصلٍ ولكنَّهـا للنصـــرِ ضـــربـة لازبِ
٢٤. فريعَ لها البوسفورُ وارتَجَ عرشُه وصـــاحت ذَئابُ الشـرِّ من كلِّ جانبِ

أيدعى سليل الشرق للشرق غاصبا ؟

ثم يعبر الشاعر علي الجارم تعبيراً مبكراً جداً (في البيت السادس والعشرين) عما نسميه الآن بازدواج المعايير حيث يتساءل في استنكار: أيدعى سليل الشرق للشرق غاصبا ، ومغتاله في الغرب ليس بغاصب؟

وهو يصف هذه السياسة القائمة على ازدواج المعايير بأنها سياسة حاقدة (في البيت السابع والعشرين). ويبالغ في ازدرائها بوصفها بأنها فاقت سموم العقارب ونفثات الأفاعي لكنه قبل هذا في البيت الخامس والعشرين يتحدث عن هذا المعنى بعبارات قريبة مما نسميه الآن بالجيوبوليتيكا فيقول: أبى الغرب ان تختال للشرق راية ، ملخصا بهذا ما يعتقد في أنه هو السبب الحقيقي في وقوف الدول الغربية جميعا في مواجهة إبراهيم باشا.

٢٥.أبى الغربُ أن تختَال للشـرقِ رايةٌ وأن يقفَ المســلوبُ في وجه ســالبِ
٢٦.أيُدْعَى سليلُ الشرقِ للشرق غَاصِبًا ومغتالُه في الغربِ ليسَ بغاصـــبِ؟
٢٧. ســـيـاســـةُ حِقْدٍ أيَن من نفثـاتِهَا لعـاب الأفَـاعِي أو ســـموم العقـاربِ

أعداؤه انتصروا عليه بالدهاء لا بالسيف

وبعد كل هذا الفخر بإبراهيم باشا ينتقل الشاعر علي الجارم بدءاً من البيت الثامن والعشرين إلى نبرة الأسى على ما لاقاه إبراهيم باشا، بعد أن مهد لدعوى الأسى بالأبيات الثلاثة السابقة، وهو يقدم الأعذار بالنيابة عن إبراهيم باشا فيزعم أن أعداءه انتصروا عليه بالدهاء لا بالسيف.

حامي القبلتين : اللقب الذي منحه الجارم لإبراهيم باشا فأحياه

و يعود الشاعر علي الجارم ليفخر بإبراهيم باشا في البيت الحادي والثلاثين فيطلق عليه لقب عزيزاً لو عرفه إبراهيم باشا أو علم به واستطاع أن يقوم من مرقده لوثب وثباً ، فقد سمّاه الجارم بحامي القبلتين، فجعله بهذا اللقب موازيا للقب السلطان العثماني الذي استخدم منذ عهد السلطان سليم الأول : خادم الحرمين.

يتوجه زعيما للقومية العربية

ويبدأ الشاعر علي الجارم في البيت الثاني والثلاثين في الحديث عن إبراهيم باشا بوصفه زعيما للقومية العربية، وهي أول أبيات صريحة (وربما متجاوزة للحقيقة في هذا المعنى) ولولا أن حكومات ١٩٥٢ في مصر لم تكن تحب أحدا من الأسلاف ولم تكن تشيد إلا بزعيمها لأخذت هذه الأبيات لتجعلها ميثاق القومية العربية التي نادت بها، لكن النية الزائفة منعت الاستفادة المتاحة.

أفضل أبيات يمكن أن يتخذها زعيم قومي عربي

وما بالنا بهذه الابيات التي تخلو من ذكر إبراهيم بالاسم بما يجعلها صالحة لأي زعيم قومي عربي بعده حين يقرر الشاعر علي الجارم بكل وضوح بدءاً من البيت الحادي والثلاثين ان طموح هذا الزعيم العربي يمتد ليصل إلى أي موضع ينطق بالعربية : فقال إلى أن تنتهي الضاد انتهى ، بل إن البيت التالي (وهو البيت السادس والثلاثون) كان أنسب بيت في التعبير عن مزاعم الرئيس جمال عبد الناصر ، أو أوهام جهاز دعايته القوي: لقد زهيت مصر بباعث شعبها :

٢٨. حنَـانًـا لإبراهيم لاقى كتـائِبًـا من الكيدِ لم تَعْرِف نضَـــالَ الكتائبِ
٢٩. غزُوه بجيشٍ بـالـدهـاء مُحـارِبٌ ولكنَّـه بـالســيف غير محـاربِ
٣٠. فمـا ليَّنُوا منـه قنـاةً صـــليبـةً ولا كدَّرُوا من صـــفو تلك المناقبِ
٣١. عرفنـا لحـامي القبلتيْنِ جهـادَهُ وكَمْ هـانَ مطلوبٌ لـعزَّةِ طَـالـبِ
٣٢. لـه العُرْبُ ألقت في إبـاءٍ زِمَـامَهـا وكـانـت سَـــرَابًـا لا يُنـالُ لشـــاربِ
٣٣. فـوحَّـدهَـا فـي دولـةٍ عـربـيـةٍ تُزاحم في ركـب العُلَا بـالمنـاكـبِ
٣٤. يقولون: قِفْ بـالجيش مـاذَا تريدُه؟ وماذا تُرجِّي من وَرَاء الســباســب؟
٣٥.فقالَ: إلى أَنْ تنتهي «الضادُ» أنتهي وحيث تسـيرُ العُرْبُ تسـري نجائبِي
٣٦. لقد زُهيت مصـــر بباعثِ شـــعبِها لكســـب المعَـالي واقتنـاءِ الرغـائـبِ
٣٧. وكَمْ كتـبَ التـاريخُ لابن محمـدٍ خَوالِـدَ، والتـاريخُ أصـــدَقُ كـاتـبِ
٣٨. وكَمْ صـانَ مصـرًا من بنيه مملكٌ بعيـد منـال العزمِ جَمَّ المطَـالـبِ

إبراهيم باشا و حفيده الملك فاروق

ومن الطريف ان الشاعر علي الجارم لم ينس أنه لا بد له في القصيدة من بيت يربط بين الملك فاروق وبين جده إبراهيم باشا فختم القصيدة ببيتها الأخير الذي يسد هذا النقص سداً تقليديا ليس فيه حماسة القصيدة المتأججة.

٣٩. مـائلُ «فـاروقٍ» وعزَّةُ ملكِـه ت زِيـدُ جَلالًا في جلال المنـاســـبِ

الفصل السابع

قصيدة الشاعر أحمد الكاشف في مديح السلطان عبد الحميد

كان الشاعر أحمد الكاشف ١٨٧٨-١٩٤٨ شاعراً سياسيا من الطراز الأول، وكانت جريدة الأهرام إذا نشرت قصيدة له جعلتها تحت عنوان من الشعر السياسي، وكانت له انحيازات سياسية لا نوافقه في كثير منها ،بل ربما ننتقده فيها بقسوة ، لكننا نعترف بفضله في حب العثمانين فقد كان مُحبا مخلصا للعثمانيين حتى يمكن القول بلا مبالغة بأنه آخر شعراء العثمانيين العرب الكبار.

محنته مع البصاصين وتحديد إقامته

من وجوه المفارقة الصارخة التي لا بد من ذكرها أن الشاعر أحمد الكاشف نظم قصيدة رأى فيها "البصاصون" أو المحللون السياسيون في ذلك العصر ما يمثل دعوة إلى إقامة خلافة عربية إسلامية [بديلة] على ضفاف النيل في ظل الخديو عباس ولم يكن العثمانيون ولا البريطانيون يسمحون بتمرير مثل هذه التهمة من دون عقاب و بخاصة إذا ما قُدمت إليهم مشفوعة بالدليل من شعر الشاعر نفسه.

وهكذا أصبح الشاعر أحمد الكاشف متهما ولم يُنجه من تهمته هذه إلا نظمه لأبيات أخرى خفّفت عنه الاتهام، لكنه أُلزم بالبقاء في قريته "القرشية" لا يبارحها إلا في هدوء واستتار، وذلك على نحو ما تأخذ به الدول الأوربية الآن عند تحديد الإقامة للساسة الكبار.

في عيد جلوس السلطان

أما قصيدته في مدح السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ١٨٤٢- ١٩١٨ ، فقد نظمها الشاعر أحمد الكاشف في العيد السادس والعشرين لجلوس السلطان أي في سنة ١٩٠٢ ، وهي قصيدة جميلة بكل المقاييس ، وهي كذلك سلسة في ألفاظها ومتدفقة في معانيها و منطقية في ترتيبها ، كما أنها ذات موسيقى داخلية هادئة ، وإيقاع جميل وفيها إشارات شعرية رائعة إلى امتداد الولاء للسلطان إلى مساحة واسعة من الأرض المعمورة وإلى عدل السلطان وبعده عن الهوى والخلل في الرأي، واعتماده على

القرآن الكريم والشريعة، واعتدال مذهبه في الحكم وسعيه إلى الخير الكثير، وانتباهه إلى وظيفته في الدفاع عن الأمة بالقوة اللازمة والانتباه اليقظ.

مهابة الجانب وسلامة الحدود

تومض قصيدة الشاعر أحمد الكاشف بإشارات ذكية إلى ارتفاع قدر الامة الإسلامية تحت حكم السلطان عبد الحميد وتمتعها بالسمة العالية في الحزم والحكمة ومهابة الجانب وسلامة الحدود:

لـك الـولاء الـذي لـم يـخـفـه أحـدُ ... ولا خـلـت أمـة مـنـه ولا بـلـدُ
قد قمت بالحكم عدلاً لا يميل بك ال ... هوى ولا يتخطى رأيَك الرشـــد
وســـرتَ بالملك مأمون المذاهب مي ... مون المســـاعي على القرآن تعتمد
وبـت تـدفع عنـه الحـادثـات كمـا ... يبيـت يقظـانَ يحمي غيلَـهُ الأســـد
حتى رفعـت لـه فوق النجوم حمى ... الحزم أســبـابـه والحكمـة العمـد
فبـات ممتنعَ الأركـان تحرســـه ... عـيـن الإلـه إذا حـراســـه رقـدوا

انحيازه للديكتاتورية

وتتضمن قصيدة الشاعر أحمد الكاشف أيضا حديثاً سريعاً (لكنه منحاز إلى الديكتاتورية بوضوح) عن حال المواطنين في عهد السلطان عبد الحميد وأدوار المعارضين وما جلبته لهم من الشقاء، وسعادة الموالين بأدوارهم، وهو يفخر حيث لا فخر لسطوة السلطان في منحه ومنعه ورضاه وشره ، وهو وصف دقيق لحال الحكم الفرد الذي لم يعد من اللائق الآن لأحد أن يتغنى بفضله ، فهويبالغ في ثالث هذه الابيات مبالغة تكاد تقترب من فساد في التعبير عن العقيدة :

والناس قســمان عانٍ موثقٌ ضـــجرٌ ... في قبضـــتيك وراجٍ عيشـــه رغـد
فـلـلـمـعـادين أدوار بـهـن شـــقـوا ... ولـلـمـوالـيـن أدوار بـهـا ســـعـدوا
إن شـــئـت أعطيـت هـذي الأرض ... نضرتَها وإن تشأ أصبحتْ بالشر تتقد

السلطان عبد الحميد لا يعمل إلا من أجل الدين

ثم تتحدث قصيدة الشاعر أحمد الكاشف عن أن السلطان عبد الحميد لا يغضب إلا لله ولا يقهر إلا الحاقدين ولا يعمل في فتوحاته إلا من أجل الدين، ولا يقيم شأنا إلا للخير الذي انهضه واستعاده، وأن جيوش السلطان تُفرج الكروب بما رزقها الله به من السداد وتأييد الملائكة واعتمادها على الدين، ولهذا فإنها رزقت لواء النصر الذي يطرب الموالي ويرهب الأعادي، وكذلك اساطيل السلطان التي تجري في البحر وهي شامخة كالجبال ، تحدث صوت الرعد ، وتنشر الزبد حولها.

الدولة العثمانية التوازن بين القوى

و يذكر الشاعر أحمد الكاشف في بلاغة محكمة أن هذه الأساطيل هي سبب حالة الاستقرار الدولية والتوازن بين القوى فلولا ما تشيعه الأساطيل العثمانية من أمان القوة لاشتعلت ثورة البحر وناره وامتدت النار إلى البر.

وما غضبت لغير الله منتقماً ... وما قهرت سوى القوم الألى حقدوا
وما فتحت لغير الدين مملكة ... رأيتها عن سبيل الخير تبتعد
أنهضته مسترداً فيه قوته ... فقام يمتد في الدنيا ويَطّرد
لك الجيوش التي كم فرجت كرباً ... كأنها قسطل في الجو منعقد
يسدد الله مرماها يؤيدها ... من الملائك في غاراتها مدد
لها على الموثق الدينيِّ متَّكلٌ ... يوم الكفاح ومن إيمانها عدد
لك اللواء الذي نال الهلال فلا ... تنال رفْعتَه للعاديات يد
في خفقه طرب للمستظل به ... وللعدى رهب في طيِّه كمد
لك الأساطيل كالأطواد شامخة ... تجري فيحدث رعداً حولها الزبد
لولا أمانك ثار البحر مشتعلاً ... بنارهنَّ وسال البر والجمد

العثمانيون حققوا الاستقرار والسلام

ثم يتحدث الشاعر أحمد الكاشف عن القباب التي تساعد السلطان على إحكام قبضته على الأجواء في البر فتؤكد ما حققته الدولة العثمانية بقوتها من الاستقرار والسلام.

لك القباب التي تعلو محلقة ... في الجو والجند حراس بها رصد

جمال المحيا واستنارة الوجه

وينتقل الشاعر أحمد الكاشف في رشاقة ليتحدث عن جمال محيا الخليفة العثماني، وكيف يشع النور من وجهه ليؤكد للناس البرهان على ما يعتقدونه في الخليفة المستحق للتمجيد والمديح، ولهذا فإن أعياد الخليفة أفراح الشعب، يبتهج بها الكون في مظاهره وحسنه وتتأثر بها الطبيعة من أرض مشرقة بالنور حتى إن النجوم تود أن تترك له مكانها العالي لتكون في مكانة التاج للسلطان.

وفي محيّاك نور للخلافة قد ... أضحى لدى الناس برهاناً لما اعتقدوا
لو تستطيع النجوم النيرات هوت ... شوقاً وصارت مكان التاج تنتضد
مولاي عيدك وافى في ميامنه ... يهدي البرية أفراحاً كما عهدوا
بدا له الكون في أبهى مظاهره ... واستجمعت حسنها الأيام والأبد

الأرض تختال، والوفود تزدحم، والقلوب تشتاق

يواصل الشاعر أحمد الكاشف ما هو معروف من هذا المديح التقليدي أو الكلاسيكي، من قبيل أن الأرض تختال، والوفود تزدحم، والقلوب تشتاق، والتحية تزجى، والدعاء يتكرر.. ذلك ان الخليفة وحّد الأمة، وقضى على الفرقة، ونال الولاء برشده وحكمته وجهاده الميداني الجاد ولهذا فإنه يطمئن الخليفة ألا يخاف من الغاوين والمستكبرين والجاحدين والعُصاة والمذنبين والمحرومين والحساد والمبغضين والمرضى البائسين.

فالأرض باهرة الأنوار ناضرة ... ريا الشباب كساها الوشي والبرد
تختال ضاحكة للعالمين كما ... تختال ذات دلال زانها الغيَد
وللوفود ازدحام تحت عرشك لم ... يضق به بابك العالي ومحتشد
تشفي القلوب من الشوق الشديد بما ... لاقوا من الطلعة الكبرى وما شهدوا
كأنهم شربوا راحاً بها طربوا ... وغير منهلك الخلديِّ ما وردوا
يا صاحب الباقيات الصالحات ... ويارب الأيادي التي لم يحصها عدد
تحية ودعاء نبتغي بهما ... شرح المسرة والحب الذي نجد
أقبلت والقوم في أهوائهم فرق ... شتى طرائقُهم من غيهم قِدَد
وذدت عنهم جماهير العدى فنجوا ... وأنت في حومة الميدان منفرد

وصـــلـت فيهم فخـانتهم عزائمهم عنـد اللقـاء وطـار الصـــبر والجلـد
واســـتصـــرخوا فأتاهم جحفل لجب من دولـة الوهم فيـه اليـأس والنكـد
غلبـت مكرهمُ واغتلـت غـدرهمُ ودســـت كيداً لهم في دســـه اجتهدوا
مـاذا عليـك من القوم الـذين غووا واســـتكبروا ولمـا أوليتهم جحـدوا
فـهـل يضـــرُّ أبٌ أبنـاءه امتـلأوا حـبـاً لـه وعصـــاه مـنـهـمُ ولـد
لا ييـأس المـذنـب المحروم منـك إذا نهاه عن أن يعود الأســـر والصـــفد
لا ييـأس المـذنـب المحروم منـك إذا نهاه عن أن يعود الأســـر والصـــفد

الثناء على العثمانيين وجهادهم

ويختم الشاعر أحمد الكاشف قصيدته بالثناء على العثمانيين وجهادهم، منوها بحب الشعب لهم، وبدفاعهم عن الدين، وعزته، ونصر الله لهم، وطلائع هذا النصر المستحق للانتشار:

يـا آل عـثـمـان رفـقـاً بـالـعـداة ولا تجردوا فيهمُ ســيفاً فقد قعدوا
على الســعـادة بـاتوا يحســـدونكمُ فلم يضـــر ســـواهم ذلـك الحســـد
ففي قلوبهمُ من بغضـــكم مرضٌ وفـي عـيـونـهـمُ مـن نـوركـم رمـد
فلا يزالون في هـذا الشـــقـاء إلى أن ييـأســـوا فتراهم كلهم خمـدوا
مـهـلاً بـنـي التـرك فـي فتـح البـلاد أمـا لحبكم في الأمـانيِّ العلى أمـد
لـولاكـمُ مـا بـدت لـلـديـن حـجـتـه ولا اســـتـقـام لـبـاقـي عـزه أود
عبد الحميد لك الإخلاص فاســـتمع الحمد الذي يتوالى واجز من حمدوا
وإن ملـكَـك فـي إشـــراق زينـتِـه لـجـنـة أنـا فـيـهـا الـطـائـر الـغـرد
ســـينجز الله في الدنيا التي ابتســـمت للمســـلمين على أيـديـك مـا وُعـدوا
فاسـتبشـروا يا بني الإسـلام وانتظروا غداً فقد ضـــمن النصـــرَ المبين غد

الباب الثالث : الرحلات

الفصل الثامن : الأستاذ محمد ثابت

الذي علّمنا أدب الرحلات

كان الرحالة الأستاذ محمد ثابت ولا يزال نموذجا فذا للشخصية الحضارية النبيلة التي قدمت لوطنها العربي أفضل الخدمات المعرفية في عطاء نادر ومتصل، وعلى الرغم من أننا الآن نستمتع باللجوء إلى محركات البحث ، فقد كان هذا الرجل ممن استشرفوا هذه الحاجة المعرفية منذ زمن مبكر، ولو أن محركات البحث باللغة العربية التزمت بمنطق المعرفة القديمة ، لكان اسمه في مقدمة الأسماء المرجعية ، ومع هذا فإننا وقد أوشك العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين على نهايته لا نزال نعرف فضله ، ونقدر دوره ، ونرى أنه كان بمثابة أبرز أعلام الجيل الأول من كتاب الرحلة العرب المحدثين، قبل أن تنال الأجيال التالية له حظها من الشهرة والتكريم .

الطابع الغالب على رحلاته المكتوبة

على سبيل الإجمال يمكن القول بأن كتابات محمد ثابت في الرحلات كانت مشبعة بالروح الجغرافية التي تنظر بتأمل معرفي ووجداني إلى تجربة الارتحال في المكان ، وتعبر عن هذا الارتحال بطريقة مدرسية تجمع بين الجغرافيا والتاريخ السياسي ودراسة السلوك الاجتماعي على نحو تفصيلي ودقيق ، بعيدا عن الصياغات الدرامية أو الخطابية ، ومن واجبنا أن نقول إنه سبق جيله و الأجيال التالية إلى كثير من الإنجازات و الفضائل .

الأجيال اللاحقة بأستاذنا

ومع هذا ومن باب إعطاء الحقوق لأصحابها ، فمن المفيد أن نفرق بينه وبين بعض من كتبوا في الرحلات من بعده ، فقد كتب الدكتور حسين فوزي ، وهو من اللاحقين به سلسلة الكتب التي حملت عناوين السندباديات ، معبرا عن رؤيته للتاريخ

من خلال الارتحال في طبقات الزمن ، ثم كتب الأستاذ أنيس منصور الرحلة في كتابه الأشهر وما تلاه من تجليات شبيهة به بأسلوب صحفي لا يخلو من الارتحال الوجودي، وهي المدرسة التي انتشرت ثمراتها بجهد الكتاب الصحفيين ، حتى تكاد تستغرق ما هو منشور في اللغة العربية من كتب هذا الأدب ، ثم قدر لكاتب هذه السطور في مجموعة كتب الرحلات السبعة التي نشرها أن يعنى بالتركيز على صناعة الحضارة ومؤسساتها و تشابكاتها مع الحياة المعاصرة بأكثر من وصف الطبيعة .

موجز سيرة حياته

تخرج الرحالة الأستاذ محمد ثابت في مدرس المعلمين العليا في عصرها الذهبي ، وعمل بالتدريس في بعض المدارس الثانوية، و عين مراقبا للنشاط الاجتماعي في وزارة التربية كما شغل منصب عميد معهد المعلمين الابتدائي في الزيتون ، ثم اختير لتدريس المواد الاجتماعية في كلية النصر بالمعادي (من ضواحي القاهرة). وأصيب وهو يحاضر تلاميذه فيها بنزيف في المخ توفي على إثره.

كان الرحالة الأستاذ محمد ثابت قد عوّد نفسه أن يقوم في عطلة الصيف من كل سنة برحلة يدون مشاهداته فيها، ويقدمها للقراء في صورة محببة وبطريقة تربوية معلمة ، و مع هذا الجهد فإنه لم يلق حتى الآن ما كان يستحقه من التقدير الأدبي والنقدي و الرسمي.

و قد كدنا أن ننشر بابا مفصلا عنه في كتابنا النجوم اللامعة في تاريخنا المعاصر الذي نشر في ٢٠١٤ ، بيد أني راجعنا نفسنا يومها ، و ليتنا ما راجعناها ، فقد توقف نشر كثير من أعمالي لأسباب قاهرة نرجو الله بفضله وكرمه أن تضع أوزارها عن قريب .

يكتب الرحلات من أجل التربية بمعناها الواسع

إذا أردت أن ألخص منهج الرحالة الأستاذ محمد ثابت في كتابة الرحلات ، فإني أقول إنه كان يكتب الرحلات بالاستذكار من أجل الاستبصار والاعتبار ، أي أنه كان يكتب الرحلات من حصيلة عقلية وفلسفية قادرة ، و كان يكتبها من أجل التربية بمعناها التعليمي والسيكولوجي الواسع.

وقد سجل الأستاذ محمد ثابت في مقدمة الطبعة الأولي من كتابه «جولة في ربوع آسيا بين مصر واليابان» ما يدل على سعادته بالنجاح الذي حققه كتابه «جولة في ربوع أوروبا» ، معبرا عن أمله في أن ينجح من خلال كتابه عن آسيا في إتاحة الفرصة لتفهم تلك الشعوب التي تربطنا بها روابط عريقة توثقها العاطفة، ثم قال: «وإني لأصورها هنا كما رأتها عين مصرية شرقية غير مغرضة، لا تبتغي من وراء ذلك إلا النفع»، وهكذا عبر عن غايته النبيلة فيما كان يكتب.

الإعجاب بتقدم اليابان والخوف من مستقبل كالصين

عبر محمد ثابت عن هدفه الوطني والتعليمي من سلسلة كتبه واضعا أسباب ومظاهر التقدم الياباني المبهر نصب عينيه، ومتخوفا على وطنه من وضع كوضع الصين «البائس» على نحو ما كانت الأمور في ذلك الوقت فقال:

«... ولقد حاولت جهدي استقراء عناصر نهوضها وقعودها ، علّنا نستنير بطرائقها الموفقة فنهتدي، وعسانا نعتبر بما أصابها، فنأمن العثار الذي يتهدد الأمم في فجر نهوضها، وطور انتقالها، ونحن أحوج ما نكون للمثل العليا نترسم خطاها، ولنا في اليابان أسوة حسنة، فلنسلك نهجها، ولنا في الصين وما يحوط نهوضها من قذى وشباك أكبر العبر، سدد الله خطانا، وهدي الوطن وأبناءه سبيلا رشدا»

دراسة الشعوب

وقد زاد الرحالة الأستاذ محمد ثابت هذا المعني توضيحا وجلاء في مقدمته للطبعة الثانية :

«لقد كان رغبتي الأكيدة يوم بدأت جولاتي في ربوع الدنيا، أن أدرس شعوب العالم، وأتدسس إلى الصميم من حياتهم، لأخلص إلى ما يسود بينهم من الأخلاق والعادات، وقد كنت أصدر عقب كل جولة كتابا يضم مشاهداتي عن البلاد التي زرتها».

«وكم كان سروري عظيما أن تهافت أبنائي البررة، وزملائي الكرام على اقتناء هذه «الجولات»، حتى نفدت الطبعة الأولي، وها أنا ذا أحقق اليوم رجاء الكثيرين ممن لم تسعد «جولاتي» بشرف اقتنائهم لها، فأقدم الطبعة الثانية، بعد أن أعملت فيها

يد التهذيب، وأضفت إليها من مذكراتي بعض ما كنت قد أغفلت نشره في الطبعة الأولى».

الرحلات مرحلة متقدمة من دراسة الجغرافيا و السياسة

ومن الطريف أن الرحالة الأستاذ محمد ثابت كان يرى في الرحلات مرحلة متقدمة من دراسة الجغرافيا، ولم يكن واعيا بالدرجة الكافية إلى أنه بما يؤلفه ويقدمه يرسي أساس مدرسة عظيمة في ميدان معرفي وثقافي وأدبي كبير لا يقل أهمية عن الجغرافيا التقليدية، وهو يقول في هذا المعني:

«... وإني لسعيد إذ أرى مصر تسمو بدراسة الجغرافيا إلى العناية بوصف الشعوب وحياة الإنسان، تلك الناحية التي قصدت إليها جولاتي هذه».

«ولقد زادني غبطة ما لاحظت من أن كثيرا من الإخوان تتجه عنايتهم إلى الرحلات، حتى لقد تحدث إلى في ذلك غير قليل من حضراتهم، ولعلهم يحرصون على تدوين مذكرات ينشرونها بعد عودتهم، حتى نستطيع بجولاتهم وجولاتي أن نزف إلى أبناء هذا الوطن العزيز، بلغته العربية «كتاب الدنيا» يطالعون فيه أحوال شعوب تقدمت ركب الأمم، وأخرى تخلفت، وعسى يكون لنا من هذه أحسن العبر، ومن تلك أجمل الأثر».

اهتمامه بالجغرافيا السياسية بصورة واضحة

و الحق أن تجليات جهد الرحالة الأستاذ محمد ثابت (في كل كتبه و كل فصولها) كانت حريصة كل الحرص على كل عناصر الجغرافيا السياسية بصورة واضحة، وكان واضحا أيضا عشقه للتأريخ بمعناه الواسع، وهو ما تنبئ عنه المقدمات الطويلة التي كان يكتبها عن تأريخ كل دولة يمر بها، وكان يجيد هذه الكتابة الوافية الشافية بصورة ملحوظة، وهي إجادة لا تتأتي إلا للمدرسين الذين تعودوا التجويد من خلال تكرار ما يقدمونه من معلومات.

وعلى سبيل المثال ، فإننا نراه يلخص تأريخ الهند كله في فقرات قصيرة يبدأها بجملتين تمثل كل منهما غاية التركيز، كما تمثل مفتاحا لما يليها من حديث:

«قصة الهند سلسلة من غارات شنتها أقوام متعاقبون وفدوا من الشمال الغربي، وبخاصة عن طريق ممر خيبر، وأخضعوا البلاد لسلطانهم».

«ويتخلص تاريخ الهند في عصور ثلاثة: عصر الهندوس بين ٢٠٠٠ق.م و١٠٠٠، والعصر الإسلامي بين سنة ١٠٠٠ و١٧٥٧، وعصر سيادة الأوروبيين ويبدأ من سنة ١٧٥٧».

يجيد تقديم التاريخ السياسي

كان الرحالة الأستاذ محمد ثابت متفوقا و مبهرا تقديم التاريخ السياسي ، ونحن لا نزال نرى فيما قدمه كل ما هو ممكن من ذكاء العرض التاريخي المفعم بروح الوطنية الحقة وتوجهاتها .

مدينة عدن واحتلالها القائم على فكرة التربص

وعلى سبيل المثال، فإن هذا المعنى واضح كل الوضوح فيما قدم به الرحالة الأستاذ محمد ثابت مراحل التاريخ السياسي لمدينة عدن واحتلالها وظروف هذا الاحتلال القائم على فكرة التربص واستغلال القوة:

«احتلها الإنجليز سنة ١٨٣٧ ولاحتلالها قصة عجيبة: ذلك أن سفينة إنجليزية تحطمت على صخور عدن فأساء أهلها معاملة مَنْ نجوا منها، فأعقب ذلك أن طلبت الحكومة البريطانية شيئا من الترضية والتعويض من السلطان فأجيبت مطالبها، لكن السلطان قد مات وخلفه ابنه الذي لم يبر بوعد أبيه، فلجأ الإنجليز إلى القوة وفتحوها عنوة ووضعوا فيها حامية صغيرة، وزادت أهميتها بعد فتح سكة حديد السويس سنة ١٨٥٨، ولما فتحت قناة السويس سنة ١٨٦٩ أصبحت محطة عسكرية مهمة، إذ عدت مفتاح البحر الأحمر ، خصوصا بعدما سارعت إنجلترا إلى احتلال جزيرة (برم) وسط بوغاز باب المندب، وكانت فرنسا تتطلع إليها من قبل، وأعقب ذلك احتلال الصومال البريطاني قبالتها، لأنه المورد الرئيسي الذي منه تستمد عدن وبرم الصخريتان المجدبتان حاجتهما من الغذاء».

قائمة موجزة لكتب الرحالة الأستاذ محمد ثابت

- جولة في ربوع أوروبا.. بين مصر وأيسلندا عن طرائف المدنية الأوروبية ومشاهدها ونظمها الاجتماعية.

- جولة في ربوع آسيا.. بين مصر واليابان، عن بدائع الشرق الأقصى ومدهشاته (اليابان والصين والهند.. إلخ).
- جولة في ربوع إفريقية.. بين مصر ورأس الرجاء الصالح، عن عجائب القارة الغامضة وغابات جوفها وأسرار همجها وأخطار وحوشها.
- جولة في ربوع الشرق الأدنى.. بين مصر وأفغانستان، عن مميزات بلاد إيران والعراق والأفغان والأناضول والشام.
- جولة في ربوع الدنيا الجديدة بين مصر والأميركتين عن مدهشات الدنيا الجديدة ونفائس بلاد المغرب والأندلس.
- الموجز في الجغرافيا الإقليمية، مدرسي.
- رحلاتي في مشارق الأرض ومغاربها.
- العالم الديمقراطي كما رأيته.
- العالم العربي كما رأيته.
- نساء العالم كما رأيتهن.
- دنيا الجنس اللطيف.

ثناء عميد الجغرافيين المبكر على جهده

في عدد من أوائل أعداد مجلة الرسالة هو العدد السابع (١٩٣٣) كتب أستاذ الجغرافيا العلامة الدكتور محمد عوض محمد (وزير المعارف وعضو مجمع اللغة العربية فيما بعد) يثني على الأستاذ محمد ثابت و رحلاته و ينقد كتابه "جولة في ربوع أفريقية" ، وافتتح الدكتور محمد عوض محمد مقاله القيم بقوله:

" ليس من السهل أن نجد في هذا القطر كله لمحمد ثابت ضريبا ولا شبيها في حبه للرحلات البعيدة، وفي التضحية بوقت نفيس وبمال أنفس، في سبيل إرضاء هذه الرغبة السامية، التي تدفعه في كل صيف إلى أطراف العالم، لكي يرى بعينيه تلك الأقطار البعيدة التي طالما سمع عنها وتاقت نفسه لمشاهدتها. .

"وأي امرئ لا يملك الإعجاب الشديد حين يرى محمد ثابت ينفق من ماله القليل الذي ادخره بكثير من حرمان النفس، ينفق عشرين جنيها كاملة من أجل رحلة بالسيارة من (كمبالا) على بحيرة فكتوريا إلى (فورت بورتال) على سفح رونزوري (مسافة لا تزيد كثيرا على ما بين القاهرة والإسكندرية) لكي يمتع الطرف بالتأمل

في تلك الجبال الشامخة ساعات قلائل، وقد اختفت قممها تحت غشاء كثيف من السحاب والضباب. ثم يعود أدراجه إلى كمبالا لكي يستأنف سياحته الطويلة".

تصوير الدكتور محمد عوض لقيمة جهده الفذ

يؤكد العلامة الدكتور محمد عوض محمد على تقديره المنصف للأستاذ محمد ثابت فيقول :

" وفي المصريين كثير ممن ينزحون عن قطرنا صيفا. . . ولكن هؤلاء لهم شأن غير شأن صديقنا ثابت، وقصة غير قصته. فهؤلاء قبلتهم إما فيشي أو كارلسباد يتداوون بمائها الشافي بما أنزلوه بأجسامهم من نتائج الإفراط أو التفريط. أو قبلتهم باريس حيث يحيون حياتهم في القاهرة، يجلسون النهار كله وشطرا من الليل في مقاهي مدينة النور (وهم لا يرون من نورها شيئا) يقضون وقتهم قعودا كسالى يتحدثون وهم في ميدان الأوبرا بذلك الصوت المصري الجهوري فيسمعهم جميع من بالبوليفارد، يعلنون عن أنفسهم، وما في أنفسهم شيء يستحق الإعلان، ومنهم من هو شر من هذا. . وأي شر؟

"ولكن مالي أكدر نفسي بالكلام عن هؤلاء وأنا أريد أن ينشرح صدري بالكلام عن محمد ثابت؟

" منذ ثلاثة أعوام جال محمد ثابت في ربوع أوربا، فلم يزل ينتقل من قطر إلى قطر حتى بلغ جزيرة أيسلندا وكان من الدائرة القطبية قاب قوسين أو أدنى. . . وفي الصيف التالي يمم شطر المشرق وجال في بلاد الهند والصين واليابان؛ وفي الصيف الماضي حملته السفينة باسم الله مجراها ومرساها إلى شرق أفريقية وجنوبها. فاخترق خط الاستواء للمرة الأولى (إذ لا أظنه اجتازه في جولته الآسيوية) ثم عاد إلى مصر بطريق البر والنهر (نهر النيل) مجتازا بلاد كينيا وأوغندا والسودان المصري" .

ينتقده في أن عنايته بالمعلومات أكثر من عنايته بالانطباعات

بيد أن الدكتور محمد عوض محمد كان حريصا على أن ينتقد الأستاذ محمد ثابت في أن تصل عنايته بالمعلومات إلى أكثر من عنايته بالانطباعات والتجربة ، وهو يقول في هذا المعنى :

" وإني ليحزنني أن إعجابي الذي لا حد له بالرحالة محمد ثابت لا ينصرف إلى الكتاب الذي بين يدي الآن (جولة في ربوع أفريقية) ، فإن شخصية المؤلف لم تنصف شخصية الرحالة. ولم تقم بالواجب نحوها. فتحت (جولة في ربوع أفريقية) وأنا أتوقع أن أطالع كتابا يصف لي رحلة المؤلف وحركاته وسكناته بدقة، ويصور لي كل شيء رآه، وما مر به من الحوادث. لكي أشعر أنني معه ألازمه في رحلته أسافر كما يسافر وأرى ما يرى.

"وهذه هي اللذة الخاصة التي أجدها في مطالعة كتب الرحلات. لكن محمد ثابت لم يفعل هذا ، بل أخرج لنا كتابا يتضمن بيانات (لا أنكر أن أكثرها نافع مفيد) عن جغرافية شرق أفريقية، وقد ضاع حديث الرحلة بين الفصول الجغرافية كما تضيع قطع الذهب وسط أكوام من التراب ، فكنت أجده لأقل المناسبات يترك موضوع الرحلة تماما، ويأخذ في كتابة فصل جغرافي في شيء من الإسهاب، ولكنه خارج عن موضوع الرحلة. ففي صفحة ٧٦ بيان طويل عن السكر وزراعته لا في أفريقية وحدها ، بل وفي غيرها من الأقطار، ويتكلم في صفحة ٥٦ و٥٧ عن بلاد روديسيا والكونغو مع أنه لم يرهما ولم يمر بهما، ويكتب فصلا طويلا عن جبل كلمنجارو مع أنه رآه عن بعد مائة كيلو متر، وفصلا عن تاريخ أوغندا أو عن نقل السفن إلى بحيرات فكتوريا منذ عشرات من السنين. وبيانا عن الكركدن ولم يره ، ..... ".

الدكتور محمد عوض محمد يوجه نصحه له

يوجه الدكتور محمد عوض محمد عتابه ونصحه للأستاذ محمد ثابت فيقول :

" وإني أريد أن أذكر لصديقنا الفاضل أن أمامنا كتبا كثيرة نستخلص منها تاريخ أفريقية وجغرافيتها !. ولكن الذي بنا إليه شغف شديد، والذي يستطيع هو وحده أن يعطينا إياه، هو كتاب عن رحلة محمد ثابت. ولهذا كان أمتع فصول الكاتب على الإطلاق هو ذلك الجزء الذي يصف لنا فيه كيف منع من دخول جنوب أفريقية، وكيف جنت عليه مصريته في تلك الأقطار النائية. هذا الفصل للقارئ هو بمثابة الجوهرة وسط الأحجار.

الدكتور محمد عوض محمد يقدم حلا عمليا جميلا

ثم يقدم الدكتور محمد عوض محمد ، بإخلاص العالم الأستاذ، حلا عمليا جميلا يقترحه على الأستاذ محمد ثابت فيقول :

" ويخيل إلى أن محمد ثابت لم يكن يكتب مذكرات (يومية) أثناء رحلته. ولو فعل لكان لديه محصول وافر يغنيه عن تلك الفصول الجغرافية. وإنك لتقرأ الكتاب فلا تستطيع أن تستبين منه تفاصيل حركات السائح. فقد دخل (نيروبي) ، ولكنه لا يذكر لنا في أي تأريخ نزل بها. وبات ليلة في (ناكورو) فلا يخبرنا أين بات. ويمر بأوغندا ويقضي بها أياما، ولكنك لا تعرف متى دخلها ومتى خرج منها. ولست أستطيع أن أعزو هذا الإغفال إلا لشيء واحد ، هو أنه لم يكتب مذكرات يومية أثناء السياحة. ولهذا أرجو منه في سياحته المقبلة ألا ينام ليلة قبل أن يدون مشاهدات يومه. وسيرى القراء الفرق بين الكتاب الجديد والقديم.

عادات الشعوب و تقاليدها الغريبة

كان الرحالة الأستاذ محمد ثابت في كتبه ورحلاته مهتما بالعادات والتقاليد الاجتماعية التي تختلف بالطبع من شعب إلى شعب، وقد تميزت كتاباته عنها بالدقة في وصفها مع إيجاز دال على الحقيقة، وخذ مثلا على ذلك وصفه لنظام الزواج المبكر جدا في مدينة مدراس الهندية وآثاره السيئة، بل الفظيعة على نسل الأمة وصحتها:

«... ومما أثار اهتمامي الزوجات الصغيرات اللاتي كن يحملن أطفالا نحالا لا يزيد وزن الواحد على أربعة أرطال أو خمسة، وكنت أخالهن يحملن إخوتهن لا أبناءهن، لكني دهشت لما علمت أن زواج البنت يبدأ من سن الثامنة، فإن أخرت إلى الثانية عشرة عد بقاؤها عارا لا يمحي، ودل على وجود عيب فيها، ولذلك لم يكن عجيبا ما يبدو من جسمها الضئيل، وبنيتها الضعيفة لصغر سنها، ولأنها من سلالة ضعيفة مثلها، أما الزوج فقد يكون طفلا مثلها، وقد يكون كهلا أنهكت السنون قواه، وفي الحالين هو غير صالح إلا لإنتاج نسل بائس ضعيف، وهم الزوجين أن يخلفوا من الأبناء ما استطاعوا، وبخاصة الذكور، فإن الأم لا تجد لها حديثا أمام أطفالها إلا

ما يتعلق بالزواج فتنشط بذلك الميول الجنسية بين الأطفال، وتفسد أخلاقهم عاجلا، وهذا يخلف أثره السيء في قوى النشء العقلية والجسمية"

الزواج المبكر عند الهندوس واجب

" والزواج المبكر عند الهندوس واجب لأن فيه عصمة من الأمراض، وتعجيلا بالخلف من الذكور، ذاك الذي يعده الآباء شرف العائلة، وقد نسي القوم الأثر السيء لذلك في إضعاف الذرية، وإنهاك القوى الحيوية، لذلك ليس بعجيب أن ترى الهندي فاقدا لتلك القوى عند بلوغه الثلاثين كما أثبت الإحصاء الطبي ذلك، لهذا لجأ الكل إلى تناول سموم المخدرات (خصوصا الحشيش والأفيون) والمقويات التي يعلن عنها في جميع جرائدهم بشكل فاضح مخجل، حتى إن الحكومة كثيرا ما تصادر بعض الجرائد لجرأتها على هذا النوع من الإعلان ».

يصوغ وصفه بلغة صادقة ودقيقة ورصينة

أما وصف الرحالة الأستاذ محمد ثابت لعجائب الرحلات والشعوب ، فيتسم بالدقة دون تهويل أو فبركة، وهو يصوغ وصفه بلغة صادقة ودقيقة ورصينة في الوقت ذاته، مع حرص على كل مميزات الأساليب الكتابية في عصره من قبيل التمسك بالإيقاع الجميل للنص، واللجوء إلى المترادفات من أجل بيان المعني، وانظر على سبيل المثال إلى وصفه لجزيرة سرنديب :

«... وفي باكورة اليوم الثاني عشر من مغادرتنا بورسعيد تجلت كولمبو بمينائها الكبير، وقصورها السامقة في أحيائها الافرنجي، وما أن بدت طلائع الحي الوطني، وهو غالب المدينة، حتى راعنا منظر الناس البشع في مظهرهم القذر، وجسومهم العارية، وألوانهم الشاحبة، ونظرتهم المخيفة فهم يترامون حولك كالدوييات لا تدري من أين يفدون في جماهير لا حصر لها، فكأنهم يحشرون إلى ك حشرا في فقر مدقع، وبؤس مبيد، يمسكون بتلابيبك ملحفين جميعا في طلب معونتك المادية».

يمضغون عشبا أخضر

«ويزيد منظرهم قبحا أفواههم المفتحة وكأنهم البلهاء يمضغون عشبا أخضر يباع في كل مكان، وبمجرد ملامسته للعاب يبدو وكأنه الدم يلوث أفواههم، ولا ينفكون

يمضغونه أينما كانوا، وهم يعتقدون أنه مصلح للأسنان، ومسكن للأوجاع، ومكسب للمناعة ضد المرض بين أفراد شعب غذاؤه نباتي شحيح، وشجره يسمي بيتل مقدس لديهم، لذلك فهم يلفون في ورقه النقود والقرابين التي يقدمونها للآلهة منذ القدم، وعند مضغه يضعون داخل الورقة الخضراء فتات بندق اسمه (أريكا)، وفتات الجير من أصداف البحر أو المرجان، وترى حتى النساء والأطفال دائبين على مضغه على مرأي تعافه الأعين، وتشمئز منه النفوس».

الركشا: المطية الرئيسية

«طال تجوالي في تلك الأحياء وأنا أركب الركشا، وهي المطية الرئيسية هناك، أشبه بعربة صغيرة من عجلتين يجرها رجل بائس كنت أشعر بالألم الشديد من أجله وهو يجري في ذلك الحر القائظ وكأنه الدابة المجهدة».

زيارة المعبدين

«زرت هناك معبدين أحدهما بوذا أكبر آلهة الجزيرة، إذ يدين به غالب السكان، وفي تماثيل لبوذا في أحجام كبيرة، وتزين الجدران صورة نعرف منها قصة بوذا منذ كان شخصا عاديا فأضحي أميرا ثم صعد إلى السماء فأصبح إلها، وعند دخولنا تقدم إلينا بعض القسس بزهور الفل والياسمين ملأنا منها سلة صغيرة دفعنا ثمنها وحملناها إلى قدمي الإله ، حيث أخذنا ننثرها كما يفعل القسيس الذي كان يرش بين آونة وأخرى جانبا من ماء الورد يعطر به المكان».

«أما المعبد الثاني فهندوسي نظرنا إليه من الخارج إذ لا يباح للأنجاس من الغرباء عن الدين أمثالنا أن يطأوا داخله ، رغم ما كان يلوثه من أقذار، ويحوطه في الخارج من زرافات المتسولين والفقراء والعراة في أشكالهم القذرة المنفرة».

صخرة لافينيا

«وخير ما نراه في الأحياء النظيفة من المدينة صخرة لافينيا التي تشرف على البحر بتقوسات جذابة، يحفها نخيل النرجيل، ويتوجها نزل فاخر تناولت فيه الشاي ذائع الصيت، وبعد ذلك قصدت إلى حديقة النبات التي نسقت أيما تنسيق تزينها الفصائل الوفيرة لنبات المناطق الحارة».

عقم النساء في الهند

يتناول الرحالة الأستاذ محمد ثابت في دقة وجرأة عددا كبيرا من العادات والظواهر المريضة في المجتمعات التي زارها ، وعلى سبيل المثال فإنه استعرض ظاهرة انتشار عقم النساء نتيجة لهذه الممارسات الخاطئة، كما يتحدث عن نشأة الأخلاق السيئة في ظل تقاليد سقيمة، وهو يروي هذا من دون أن يورط نفسه في اتخاذ صورة الحكم القاسي على ما يراه فاسدا، مكتفيا بالتصوير الذكي الكفيل بالوصول إلى هذا الحكم:

"... وكثير من النساء هناك عقيمات، وقد أيد البحث أن ذلك راجع إلى ضعف قوى الرجال من جهة، وإلى تشويه الرحم من أثر الزواج المبكر من جهة أخرى، وكثيرا ما يلجأ الرجال إلى المعابد فيرسلون إليها زوجاتهم بالقرابين كي يمن الله عليهم بالحمل، وفي العادة تظل المرأة هناك أياما فينوب القسيس عن الآلهة ليلا فيبارك المرأة وتعود وهي حامل، ولعل أسوأ نتائج هذا الزواج المبكر تقصير العمر، خصوصا بين النساء، وكثرة الموتى من الأطفال، فمتوسط العمر في بلاد الهند ٢٣ سنة، ويموت من الزوجات في كل جيل ٢٥,٣ مليون، تسعون في المائة منهن بسبب التهاب الرحم».

يهبون المولود القادم للآلهة

«ومن العادات العجيبة أن الآباء قد يهبون المولود القادم للآلهة ابتغاء مرضاتها، فإذا كانت أنثي سلمت لنساء المعبد، وإذا شبت تعلمت الرقص، وإذا ناهزت الثامنة أضحت خليلة أحد القسس، وإذا ملها أضحت راقصة المعبد، وفي مواسم الحج يستأجرها بعض الحجاج ، فإذا ما ذبلت محاسنها يمنحها المعبد جعلا صغيرا وتترك المعبد ولا يرى أهلها في ذلك معرة، لأنها اكتسبت اسم (عاهرة الآلهة)، وهؤلاء من مستلزمات المعابد كلها».

الزوج إله الزوجة في الدين البرهمي

«ويوصي الدين البرهمي بأن الزوج إله الزوجة في الأرض، خلقت لسروره، وخضعت له مهما فسد جسمه أو خلقه أو عقله، ولابد أن تطيع حماتها، و يا ويلها إن

لم تعقب طفلا أو عقبت أنثي، فلها أن تستعبدها عندئذ، لذلك كان عدد المنتحرات بين سن ١٤ و١٩ مروعا، وإذا مات زوجها حتم الدين أن تحرق جثتها معه، وإلا كانت موضع اللعنات، ولم يبح لها شيء من السرور، ولا تتزوج ثانية، بل تحلق رأسها وتقصد أحد المعابد لتظل فيه أيامها الباقية، ويجب ألا تظهر كثيرا أمام الناس لكيلا يؤثر فيهم نحس طالعها...».

وصف دقيق للبؤس الذي تتعرض له عملية الولادة

ويصف الرحالة الأستاذ محمد ثابت مظاهر البؤس الذي تتعرض له الحوامل عندما يشارفن مرحلة الولادة، وهو وصف دقيق وإن كان مؤلما:

«وبمجرد شعور الحامل بألم الوضع تنبذ في غرفة ضيقة مظلمة، ولا يقترب أحد منها قط ، لأنها أصبحت نجسة، وفي الحال تأتي المولدة (داية) ، وهي من الطبقات النجسة البائسة، فترتدي أقذر أسمالها، وتسد المنافذ، وتحرق الحطب لأن الدخان والحرارة تساعد على سرعة الوضع، وإذا دخل الحجرة غريب أحرقت بخورا منتن الرائحة لمنع أثر العين الخبيثة، وتباشر عمليتها بأيديها القذرة، وتحاول إخراج المولود بالقوة، فتشبع بطن الأم لكما بالأيدي والرأس، وقد تطرحها أرضا وتمشي على بطنها وتضع في الرحم كرات من مواد حريفة، وقطعا من شعر الماعز، وأذناب العقارب، وجلود الأفاعي و ما إليها، وإذا تم الوضع لا تجرؤ المولدة أن تقطع الحبل السري لأنه من عمل امرأة أخري أحط درجة من المولدة، فتنتظرها حتى تجيء، أما الطعام فيمنع بتاتا عن الأم بين أربعة أيام وسبعة، ويظهر أن السبب الأصلي ألا تصاب أواني المنزل برجس».

تكحيل عيون الوالدة إذا ماتت

«وكثيرا ما تتعسر الولادة بسبب ضيق عظام الرحم نتيجة الزواج المبكر فتموت الأم، فإذا رجحت المولدة موتها عجلت بتكحيل عيونها بمسحوق الفلفل لكي تعمي الروح فلا تستطيع الخروج والمكث في الدار، وقد تمد ذراعيها وتدق مسمارا يثبتهما في الأرض لكيلا تستطيع الروح التجول في المنزل ومضايقة الأحياء!».

أيقونة الفن الإسلامي في تاج محل

كان الرحالة الأستاذ محمد ثابت يزين مؤلفاته بالصور الجميلة التي تضيف إلى النص روحا فنية معبرة ، وقد يصل متوسط عدد هذه الصور إلى صورة في كل صفحة، وفي هذا الصدد فإنه كان متقدما على عصره و على كثير منا في عصورنا اللاحقة.

انبهاره بالآثار الجميلة

ولا يخفي الرحالة الأستاذ محمد ثابت انبهاره بالآثار الجميلة، وانظر إلى هذه الفقرة من الوصف الجميل الذي قدمه لتاج محل:

«حق للهندسة المغولية أن تفاخر بتلك القطعة الفنية، فما إن وقع ناظري عليه حتى ذهلت من عظمة ما رأيت، جلال في دقة صنع، ورواء في حسن تنسيق، وآيات للفن بينات في كل ناحية من نواحيه، فهو وحده خير مبرر لزيارتي للهند، تلك البلاد التي كنت حتى الساعة لا أذكرها بالخير الكثير».

«دخلت من الباب الرئيسي، وهو وحده قصر فاخر بأقبيته وقبابه ومناراته فانكشفت حدائق التاج الفسيحة التي نسقت بالنافورات والمنحدرات والطرقات الملونة، والنقائع يزينها زهر البشنين وورقه صفت من حولها مخاريط الشجر الباسق، وفي وسط كل أولئك يقوم التاج كالعروس ولكن أنى لقلمي الكليل أن يصور بدائعه، ويحكي إعجازه، فقد تنقل الكلمات والصور إلى القارئ شيئا عن المكان، ولكن أني لها أن تشعره بالذهول والإكبار الذي يحسه مَنْ يراه بعينه! صور لنفسك قصرا فاخرا أقيم كله من الرخام الوضاء، والمرمر البراق تحوطه من الأركان مآذن دقيقة رشيقة، و تتوسطه قبة كبيرة رائعة تحوطها القباب الصغيرة، والمنائر الرفيعة، والأرض والجدران قد رصعت كلها بالزهور والزخارف الفارسية، لا بالرسم الزيتي، بل بالياقوت والزمرد والزبرجد وما إليها، "

المهندس راعى المنظور في كتابته لآيات الذكر الحكيم

" وتزين الجدران إلى جانب هذا آيات الذكر الحكيم كلها لا بالمداد، بل بمقصوص الرخام الأسود ألبس الجدران البيضاء والمدهش أن المهندس قد راعى المنظور في

كتابتها ، بحيث أنك تراها تبدو في أعلى المكان وفي أسفله بحجم واحد رغم علوه الشاهق، وفي بعض الصفحات تري الرخام قد خرط في أشكال شتي بين بارز وغائر، أما النوافذ والفتحات فأشبه بشباك المخرمات في دقة فائقة، وهندسة عجيبة قدت في الرخام، وكان يغطي غالب الفتحات الزجاج الطبيعي (الميكا البيضاء)، ولم يبق منها اليوم سوى لوح واحد"

" وفي قلب المكان ترى المقبرة من المرمر رصع بمختلف الأحجار الكريمة يحوطها سور من مقصوص الرخام، وهذه تضم رفات زوجة شاه جهان (ممتاز محل)، وكان يحوطها سور من فضة، ويكسو القبة غشاء ثقيل من ذهب كانت زنته ٢٦٥٠ رطلا، ويدخل الضوء من الباب فقط فيسقط على المقبرة رأسا فتشرق وسط الأركان المظلمة، وقد ألصقت بجانبها مقبرة أخرى، فيما بعد دفن فيها زوجها، وكان قد بدأ يقيم لنفسه مقبرة على مثال التاج في الجانب الآخر من النهر».

انطباعاته الحسية في وصف قبة تاج محل

يعمد الأستاذ محمد ثابت في حديثه عن الآثار إلى مقارنات علمية جميلة ، وذلك من قبيل تسجيل انطباعاته الحسية في أثناء وصفه لقبة تاج محل:

«وللقبة الرئيسية أثر ساحر في ترديد صدى الصوت يفوق ذاك الذي لاحظته في بيزا بإيطاليا، وقفت داخلها وكأني طربت لما أن تصورت المقرئ بصوته الرخيم يردد الآيات البينات، أو يصيح بعبارات التأبين والندبة في أنغامها الشجية التي تبدو وكأنها دوي أصوات الملائكة ترددده تلك القبة من السماء"

" ولا أنسى زيارتي الثانية للتاج في المساء وكانت ليلة مقمرة ، فبدا وهجه في ضوء القمر الشاحب، وسكون الليل الرهيب ، فأثار في النفس من ذكريات، وأهاج من شجون».

تاج محل بلغة الأرقام والحسابات المادية

لا يفوت الرحالة الأستاذ محمد ثابت أن يصور الإنجاز الفني الهنسي بلغة الأرقام والحسابات المادية :

«وقد قيل إن السلطان استدعي عباقرة الفن من العرب وفارس والهند وأوروبا ، فاستلزم البناء ١٧ سنة، وكان طوال هذه المدة يشتغل عشرون ألف عامل حتى بلغت

أكلافه (أي تكلفته) أربعة ملايين من الجنيهات في ذاك الوقت الذي كانت الأموال فيه نادرة».

صدى مشاهداته لظاهرة عبادة البقر

كذلك فإن الرحالة الأستاذ محمد ثابت كان حريصا على أن يقدم انطباعاته الصادقة عن العجائب الوطنية المرتبطة بالمعتقدات والعادات والتقاليد بصورة علمية تتحري الحقيقة ولا تثبت إلا ما رآه بعينيه، ومن ذلك حديثه عن مظاهر عبادة البقر في الهند في ذلك الوقت الذي قام فيه برحلاته:

«... وكل فرد وهو على سرير الموت يمسك بذنب البقرة حتى تفيض روحه إن أراد الجنة.. بلغني أنه لما حضرت الوفاة مهراجا كاشمير الأخير ، طلب أن تساق البقرة إليه في غرفته، فلما لم يفلحوا في ذلك حُمل الأمير إليها فأمسك بذنبها حتى فاضت روحه، وقد قيل إن العصيان الهندي الكبير كان من السهل تلافيه ، لو أن بريطانيا منعت ذبح البقر، وكان ولايزال بعض الجند يأبون حمل السلاح لظنهم أن دهن البقر يدخل في تركيبه، وثار الكثير لأنهم كُلفوا أن يفرغوا قطرا تملأها لحوم البقر المحفوظة في علب جيء بها من استراليا».

تقديس خمسة منتجات في البقرة

«ويقدس الجميع خمسة منتجات في البقرة وهي: اللبن، والمسلي، واللبن المتجبن، والروث، والبول، وتلك توضح في أوان ساعة الصلاة ثم تمزج ببعضها ويشربها القوم تبركا كأعظم مطهر من الآثام، وهذا المزيج يسمي في عرفهم (Panchagavia)، وغريب أن يكون أثر البول في الطهر أبلغ لديهم، فكثيرا ما كنا نري الناس يقفون أثر بقرة لكي يحملوا البول وهو دافئ في آنية، ويسرعون بها إلى بيوتهم ليشربوه على الفور، أو ليدهنوا به وجوههم ورؤوسهم، وقد يتلقاه الرجل في يديه ويحتسيه أمامنا "

يعدوننا أنجاسا لأننا نأكل لحم البقر

" وهم يعدوننا أنجاسا لأننا نأكل لحم البقر، ولذلك فهم لا يسلمون علينا باليد مطلقا، وإن اضطر وجهاؤهم لبسوا القفازات، فكم من مرة مددت فيها يدي لأصافح بعض

مَنْ تعرفت بهم من زملاء القطار من بين المتعلمين ، فكان خجلي شديدا عندما كنت أراهم يرفضون ذلك ويضمون أيديهم إلى صدورهم لرد تحيتي لهم"

تجربته الشخصية مع ما جلبه له أكل اللحم من فقدان تقديرهم

وحدث مرة أن خادم القطار قدم لي الطعام في العربة التي كنت أركبها، وما كاد يقع نظر إخواني الهنود من حولي على اللحم الذي آكله حتى تنحوا عني وأخذت ترمقني نظراتهم بشيء من الاشمئزاز، وقد عانيت طويلا حتى استعدت علاقتي الحسنة معهم كرة أخرى، وصارحني بعضهم أنه يرى في ذلك الرجس كله، وأن نفسه تتقزز ويعروها الشعور بالقيء لمجرد رؤية اللحم، وكثيرا ما كنا نرى البقر تطوق جيده العقود، وتخضب قرونه بالألوان، وتزينها أطواق النحاس البراق، ويقبل المارة على البقر لثما وتقبيلا».

يهملون إطعام البقر على قداسته

«ومن عجيب أمرهم أنهم يهملون إطعام البقر على قداسته، ويكتفون بتركه يجوب الطرق، ويرعى ما ألقي فيها من قمامات، لذلك نري غالب (البقر) عجافا هزالا قد أصابتها مختلف الأمراض، ومما ساعد على انحطاط نوع البقر هناك ، أن من يهب عجلا أو بقرة للمعبد تبركا أو لمناسبة موت عزيز لديه يبتاع أرخص الأنواع و أردأها ، وتطلق هذه وتظل ملكا للمعبد بدون رعاية أو استغلال، وقد قدر عددها بحو سبعين مليونا لا يستفاد منها بشيء، ولو استغل هذا العدد لأنتج ما قيمتها ١١٧,٥ مليون جنيه في العام"

المشاحنات بسبب ذبح العجول

وطالما تقع المشاحنات المبيدة بين الهندوس والمسلمين يوم عيد الأضحى بسبب ذبح العجول، وإن نعجب فعجبنا من تناقضهم، فالبراهما هو الذي يبيعها للمسلمين أحيانا "

قسوة الهنود جميعا في معاملة ذلك الحيوان المقدس

" إلى ذلك تضاف قسوة الهنود جميعا في معاملة ذاك الحيوان المقدس عند استخدامه في جر العربات، والعجول هي دابة الجر الرئيسية في الهند، فلا تكاد تري حيوانا سليم الذنب ، لأن السائق يضغط على فقرات ذنبه طول الطريق يستحثه على مواصلة السير، لذلك تراها تتكسر، إلى ذلك تعذيب البقرة ساعة حلبها، إذ يُدخل الحالب في دبر البقرة عصي زودت بأهداب خشنة ولا يفتأ يحركها ، معتقدا أن ذلك يدر اللبن، غير آبه بما يحدثه ذلك في البقرة من الآلام المبرحة».

الملايو جنة الدنيا ، وطوكيو تتفوق على أوربا

وكان الرحالة الأستاذ محمد ثابت يتعمد تقديم أوصاف عمومية دالة على الأوطان التي زارها، وقد تكون هذه الأوصاف من الألفاظ الشائعة عند أهل هذه البلاد، فمن ذلك أنه يصف الملايو بأنها جنة الدنيا، وبستانها اليانع، لكنه يضيف إلى هذا الوصف ما توصل إليه بمشاهداته وعقيدته في الحضارة والتقدم الحضاري، وهذا على سبيل المثال هو وصفه البليغ المنبهر بما رآه في مدينة طوكيو:

«... بأي لسان أستطيع أن أقص ما أرى من عظمة ودقة، تنميق حسن، وذوق سليم، مدينة تتجلي في كل مناحيها أبهة الملك، وعزة السلطان».

«هي تفوق في نظري كثيرا من عواصم أوروبا بقصورها الشامخة، وطرقها الممدودة، وحدائقها الوارفة تكاد تمتد كل طرقها الرئيسية على نمط واحد، واتساع رحب يتوسطها ممر الترام ، والعجلات الكبيرة، ثم أفريز من خضرة، ثم ممر للعجلات الصغيرة فإطار للمارة، والمصابيح تعلو في عناقيد إلى مد البصر"

البوليس المتحضر

" ورجل البوليس يتوسط مفارق الطرق، ويسير الحركة بالمصابيح الملونة، والصفافير، واليدين في دقة عجيبة، ومهابة يقدرها الجميع، وتوزيع مخافر البوليس في بلاد اليابان، يغايره في البلدان الأخرى، إذ تري جوسقا صغيرا به ضابط البوليس ومعاونه، وحولهما التليفون والسجلات والخرائط، وتتوزع تلك الجواسق في مسافات متقاربة، وحتى داخل الأزقة لتكفل الأمن من جهة، ولتهدي المارة لما يطلبون، أما

نظام البوليس المركز في أقسام كبيرة نائية عن بعضها كما نراه عندنا فليس له وجود، لذلك فإنك ترى البوليس ملما هناك بكل شيء، عالما بدقائق منطقته الصغيرة وسكانها"

" حدث مرة أن أحد النزلاء من الطليان انتقل إلى دار جديدة، فلما كان المساء عاد الرجل فاشتبه عليه الأمر وضل طريقه إلى داره الجديدة، فباغته رجل البوليس وهو حائر قائلا: أأنت فلان؟ ماذا تريد؟ فخبره أنه ضل طريقه، فقاده رجل البوليس إلى بيته الجديد! لذلك قلما تفلت من البوليس هناك جريمة لا يهتدي إليها عاجلا».

قصر الإمبراطور الياباني

«قصدت قصر الإمبراطور، وهنا تجلت العظمة بأحلى معانيها، هو شبه قلعة مشرفة كأنها الجبل يحوطها خندق تعبره القناطر تؤدي إلى القصر، وهندسته مزيج من اليابانية والصينية في طابق واحد، وسقوف منحدرة خشبية تتقوس أركانها إلى السماء، ولا يباح لأحد دخول القصر ولا تصويره تقديسا له وللإمبراطور ابن السماء، حدث أني كنت أحاول أخذ صورة لم أشعر إلا وفارس قد أقبل مسرعا وأخذ الفوتوغرافية وأفسد الفيلم بيده وهو يعتذر بأن ذلك غير مباح، وتركني بعد أن بش في وجهي وانحنى تأدبا، أما الميدان الذي يتقدم القصر فعظيم لا يعرف مداه، وتقوم عليه حول القصر كثير من دور الحكومات في قصور سامقة أخصها دار البرلمان في هندستها الغريبة، ووزارة الحربية والبحرية بأعمدة اللاسلكي تسامت السماء، وتهول الناظر بضخامتها، وتتناثر هنا وهناك تماثيل عليتهم ممن أبلوا للوطن البلاء الحسن».

تقديس الإمبراطور

«وتقديس القوم للإمبراطور يثير الدهشة، فكل شيء هناك يتلاشى إلى جانبه، فهو مطلق التصرف في البلاد، وسلطة البرلمان ضئيلة أمامه، خصوصا فيما يختص بالمالية والشئون الحربية، ومجلس الوزراء مسئول أمامه فقط، وهو الذي يعين رئيسه ولا يشترط اختيار الوزراء من رجال الحزب السائد في البرلمان، ووزيرا الحربية والبحرية يقابلان الإمبراطور رأسا ولا يسقطان بسقوط الوزارة».

انبهاره بمستوى الفندقة اليابانية

وهذا على سبيل المثال أيضا هو وصف الرحالة الأستاذ محمد ثابت المنبهر بالخدمة الفندقية في اليابان:

«حللت نزل (Chuo) الفاخر، وهو على النمط الافرنجي، يديره اليابانيون رجالا ونساء، فقوبلت بالانحناءات والابتسامات، وما أن حللت غرفتي حتى أقبلت الفتاة تقدم شاي التحية، وهذا يكرر كلما عدت إلى النزل، وفي أية ساعة، ثم عقبته بإخباري أن قد أُعد الحمّام، وحتى في غرفة الطعام الافرنجية تراهن وقوفا زرافات يحاولن تسليتك ، ولو لم يعرفن لغتك، حدث أن مرت فتاتان بباب النزل وأنا في غرفة الطعام تعزفان على الشامسين، وترقصان وتغنيان، فأسرعت إليهما ومعي صاحب الفندق وفتيانه، وقالوا إن تلك هي الوسيلة الوحيدة التي يباح فيها الاستجداء، يؤيد ذلك أني لم أر متسولا واحدا في جميع البلاد التي جبتها هناك، وما كدت أبرز آلة التصوير لآخذ صورتهن حتى غضب الجميع ومنعوني دفاعا عن عزتهم القومية، فاعتذرت لهم رغم أن الفتيات كن في هندام نظيف جذاب».

شارع جنزا

«هداني تجوالي في المساء إلى شارع (جنزا) بأضوائه الخاطفة، وتنسيقه الياباني الخلاب، هو متنزه الشباب، ومحط سروره ، حوى ٣٤٨ من الأنزال والملاهي ومشارب الشاي وما إليها، إلى ذلك بعض المحال التجارية تعرض بها المستحدثات التي تروق الشباب، ولن أنسي قعقعة (القباقيب)، ولا سحابات الفراش الآدمي في ألوانه الجميلة، ومن المقاهي ما هو ياباني تري الأحذية والقباقيب، وقد صفت أمام الباب، إذ يجب خلعها قبل الدخول"

نفائس الصناعات اليابانية الصغيرة

" ولعل أكبر مميزات هذا الشارع الباعة الرحل الذين يفترشون الإطارين [يقصد : الرصيفين] بسلعهم طوال الطريق، وهي نفائس الصناعات اليابانية الصغيرة التي تدل على مهارتهم الكاملة خصوصا إذا علمت أن غالبها صنع في البيوت (كلعب الأطفال، وأشغال الورق والغاب وما إليها)، وإذا ما انتصف الليل عكف كل يطوي

معروضاته قطعة - قطعة بثبات وصبر غريب، ثم يحملها إلى بيته ليعيد الكرة في الغد. نشاط وصبر إلى نظافة وتقشف امتاز بها الياباني فكان مزاحما قويا لزميله الأمريكي والأوروبي».

معنى الأسماء الوطنية للبلاد التي زارها

يحرص الرحالة الأستاذ محمد ثابت على أن يدلنا على معنى الأسماء الوطنية للبلاد التي زارها من قبيل أن سنغافورة مدينة الأسد، وأن كوريا معناها أرض الصباح الهادئ، وأن طوكيو معناها العاصمة الشرقية، وبكين معناها العاصمة الشمالية، وكيوتو عاصمة العواصم.. وهكذا.

قسوة فكرة الثأر عند اليابانيين

يتحدث الرحالة الأستاذ محمد ثابت بالطبع بتفصيل وتأمل ومقارنة عن بعض العادات المشابهة لعادات المصريين، وهو على سبيل المثال لا يخفي تعجبه من أن يسمح القانون الياباني بالثأر، ومن ذلك حديثه عن الثأر عند اليابانيين:

«... والأخذ بالثأر كان لديهم مقدسا لمحو العار، فإذا أهان أحدهم غيره قتله، لكن يعود القانون فيحكم على القاتل بالانتحار، وإلا قتل نفسه قبل ذلك، فإن نفذ فيه الحكم ظل الثأر في رقبة أتباعه الذين لابد أن يأخذوا بثأر سيدهم يوما ما، وعجيب أن كان قانونهم يبيح ذلك، وكان يحتم على المنتقم أن يبلغ الأمر للمحكمة لكي تحدد له ميعاد الانتقام، وإذا احتمي القاتل في الأشراف أو أصبح جنديا سقط عنه القصاص وقيل إن تلك التعاليم أخذت عن (كونفوشيوس)، والانتحار أشرف لديهم من الإعدام، لذلك كان يفضل القاتل أن ينتحر أمام الناس بيديه، وكان القانون يعطي للمجرم الحق في الانتحار أمام الناس، أو ينفذ فيه الإعدام، ويؤثر المنتحر أن يموت بسيفه الخاص،

وصف واقعة انتحار الأمير تاكي أمام جمع من الأوروبيين

«حُكم على الأمير تاكي زنزابورو بالانتحار ترضية للأجانب ، لأنه هو الذي أمر بضرب النار عليهم سنة ١٨٦٨ فدعا الميكادو الأجانب إلى أحد المعابد واصطف الجند "

" وجيء بالمنتحر ومعه اثنان من أعز أصدقائه ليساعداه على قتل نفسه إن خانته قواه، وتسلم الخنجر المدبب ماضي الحدين وجلس القرفصاء كعادة اليابانيين، ثم رفع الخنجر فوق رأسه شجاعة واحتراما وأخذ يعترف بجريرته في جرأة وإقدام، وطلب معذرة الحاضرين وسألهم أن يسبغوا عليه شرف مشاهدتهم إياه وهو يبقر بطنه، ثم انحني مرات احتراما ورفع قميصه ومال إلى الأمام قليلا مخافة أن يقع على ظهره ساعة انتحاره، وهو عار لا يمحي، ثم أخذ يرمق الخنجر بنظرات العجب والتيه وطعن به جانب بطنه الأيسر وطفق يشقه محركا يدا إلى الجانب الأيمن، وهنا اجتذبه إلى أعلى إمعانا في الشجاعة والجلد، وهو خلال ذلك كله لم يمتقع وجهه، بعد ذلك انحني إلى الأمام ساجدا،"

" وفي لمح البصر هوي سيف صديقه على رأسه ففصلها عن جسمه، ثم مسح الحسام بورقة وأعاده إلى غمده ، بعد أن انحني وانسحب».

رأيه في الطابع القاسي لتنفيذ الثأر

يعلق الرحالة الأستاذ محمد ثابت على هذا الطابع القاسي في تنفيذ الانتحار والثأر عند اليابانيين فيقول:

«منظر مزعج، لكنه يدل على مبلغ ضبط النفس، ورباطة الجأش، وهدوء الأعصاب في المنتحر وأعصابه، وعجيب أنهم يعدون ذلك أكبر فخر، خصوصا إذا قام أقرب المقربين بالإجهاز على حياة صديقه"

اليابانيون رفضوا فكرة إلغاء الانتحار

" .... يقدسه جميع اليابانيين لدرجة أن بعضهم عرض على البرلمان سنة ١٨٦٩ إلغاء الانتحار فرفض اقتراحه بأغلبية ٢٠٠ ضد ٩ بحجة الإخلاص للمبدأ، والشعور القومي وحفز الفضيلة، وعجيب أن (أرنو سيجورو)، وهو الذي اقترح هذا الإلغاء، مات بالطريقة نفسها بعد ذلك بزمن يسير، هذا ورغم تحريم القانون ذلك اليوم نري الانتحار منتشرا هناك، لمناسبات تافهة".

الفصل التاسع : اللواء إبراهيم رفعت باشا

صاحب أول موسوعة مصورة عن الحج والحجاز

اللواء إبراهيم رفعت باشا (١٨٥٧ ـ ١٩٣٥) عسكري مصري تقليدي درس في المدرسة الحربية المصرية ، و رزق طول العمر ،وترقى في سلك العسكرية المصرية، وخاض عدداً من المعارك العسكرية على أرض وادي النيل، وهي معارك استهدفت في المقام الأول والأخير تأمين السيطرة المصرية على وادي النيل ومسار النهر ومنابعه، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف الاستراتيجي المرتبط بما نعرفه الآن على أنه الأمن القومي ، اشتبك الجيش في هذه المعارك مع مسلمين وعرب وأفارقة وأشقاء من دون مراعاة لأية قاعدة من قواعد الولاء أو اشتراك الدين أو القومية أو الأرض ، وذلك من أجل تحقيق ذلك الهدف الاستراتيجي المحدد.

وصل لرئاسة الحرس الخديوي

وصل اللواء إبراهيم رفعت باشا قرب نهاية خدمته إلى أن اصبح عضوا بارزا في الحاشية الخديوية، وكانت تسمى المعية ، واختتم حياته العسكرية برئاسة الحرس الخديوي (ما يناظر الحرس الجمهوري أو الملكي) ونوال الباشوية ونوال رتبة اللواء، بيد أن هذا كله لم يكن ليخلد ذكره بأكثر من سطر أو سطرين في كتب التاريخ والتراجم .

خلود ذكره بسبب كتابته لرحلات الحج

تخلد ذكر اللواء إبراهيم رفعت باشا بسبب جهده الذكي في كتابة رحلاته للحج في ذلك الكتاب العظيم المكون من مجلدين و الذي ظل بعيداً عن الأعين مدة طويلة، وكنت قد بدأت في الهيئة المصرية العامة للكتاب مشروعا كبيرا لنشر كنوز القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وكان منها هذا الكتاب الذي ظل بمثابة نسيج وحده بين الكتب المشابهة له في موضوعه.

قيمة كتابه الموسوعي الفريد والمبكر

يعد كتاب "مرآة الحرمين" أول كتاب مصور ومزود بالخراط عن هذا الموضوع ، وقد ضم ما يقرب الأربعمائة صورة شمسية حية التقطها المؤلف، وسماها ، و وضعها في مكانها من السياق ، وعلّق عليها بطريقة ذكية، فجاء نسيج هذا الكتاب الموسوعي المصور مكتملا منسقا ومتسقا و فريداً في بابه.

كتابه سابق على كتاب البتانوني الذي صحب الخديو

ومن الجدير بالذكر أن الأستاذ لبيب بك البتانوني استعان بهذا الكتاب وبصوره حين كتب كتابه "الرحلة الحجازية" عن رحلة الخديو عباس حلمي الثاني المشهورة إلى الحج التي وافقت عام ١٩١٠ والتي كان من المقرر أن يصحبه فيها أمير الشعراء لكنه عاد من أول الطريق، وعوّض هذا بأن نظم قصيدته العظيمة إلى عرفات الله.

و من الجدير بالذكر أيضاً أن الرجلين إبراهيم رفعت باشا ولبيب البتانوني بك سابقان بعقود على الأستاذ محمد ثابت الرائد الأكبر لأدب الرحلات في أدبنا المعاصر.

مزايا شخصيته المنضبطة والمحبة للعلم

يتميز اللواء إبراهيم رفعت باشا في كتابه بكثير من المزايا التي تنم عن شخصيته المنضبطة والمحبة للعلم، فهو على سبيل المثال أكثر من وفق في وصفه للحجرة النبوية بأروع وصف .

و يتناول اللواء إبراهيم رفعت باشا القضايا التي تعرض له في أثناء ما يرويه من خلال زوايا جادة تراعي العلوم المختلفة (جغرافية وفلكية وهندسية وبيئية) كما أنه حريص على إثبات الأرقام في المساحات والمسافات والموازين والمكاييل والنفقات والرواتب والتكلفة .

حرصه على التثبت من الوقائع التاريخية

كان اللواء إبراهيم رفعت باشا حريصا أيضا على التثبت من الوقائع التاريخية ونسبة كل فضل إلى صاحبه .

الخليفة عثمان بن عفان هو من أنشأ ميناء جدة

وعلى سبيل المثال فإنه يعلمنا أن الذي أنشأ ميناء جدة هو الخليفة عثمان بن عفان ، في العام الهجري السادس والعشرين ، حيث اعتمر من المدينة فطلب منه أهلها أن ينقل ساحل مكة القديم من الشعبية جنوبي جدة الآن إلي جدة لقربها من مكة، فخرج بنفسه إلي جدة ورآها، واغتسل من البحر، وقال:" إنه مبارك"، وأمر من معه بدخول البحر للاغتسال مؤتزرين، ومن يومها أصبحت جدة هي ميناء مكة. كذلك فإنه يعلمنا أن الذي أنشأ سور الميناء هو السلطان قنصوه الغوري. وأن السلطانة شجر الدر كانت أول من أرسل المحمل على طريقته المعروفة.

ومما يحسب لهذا الكتاب والعصر الذي صدر فيه أنه لا يخلو من توجيه النقد للحكومة المصرية والتصرفات أو السياسات الحكومية على نحو ما سنرى.

نشأته و تدرجه العسكري

ولد اللواء ابراهيم رفعت باشا في ١٤ ديسمبر ١٨٥٧ في أسيوط، في عائلة ينتهي لقبها بالمليجي، وهو لقب لم يُعرف به، كعادة من كان ينتسب إلى طبقة رجال الدولة و العسكريين في ذلك الجيل ، أما اسم والده فهو سويفي بن عبد الجواد بن مصطفى المليجي و قد توفي والده وهو في الثالثة من عمره، فتولت والدته المسئولية عنه وتولى خليل بك سري من أعيان أسيوط كفالته، وفيما بعد فقد تزوج إبراهيم رفعت من ابنة أخ خليل بك سري.

بدأ اللواء ابراهيم رفعت باشا تعليمه في الكتاب حيث حفظ القرآن، ثم التحق بمدرسة أسيوط الأميرية وبعد أن اجتازها في ثلاث سنوات انتقل عام ١٨٨٠إلى المدرسة التجهيزية بالقاهرة ، ومنها إلى المدرسة الحربية، ومكث بها ثلاث سنوات حتى تخرجه برتبة الملازم الثاني في عهد الخديو توفيق ، وإن كانت المصادر التاريخية المتاحة لترجمته تنقل عن بعضها البعض من باب الخطأ أنه تخرج في عهد الخديو إسماعيل .

قيادة حرس المحمل

في بداية عهد الخديو عباس حلمي الثاني، كان ابراهيم رفعت باشا قد ترقي إلى رتبة الصاغ وبعد ذلك عُيِّن قائدا للكتيبة الرابعة ، ثم رقّي إلى رتبة البكباشي وتولى منصب أركان حرب قسم سواكن في السودان. وفى إبريل ١٨٩٩م نقل إلى المعينة السنية بوظيفة ياور، ثم إلى رتبة قائممقام ، وعيّن قائدا لحرس المحمل (موكب الحج) وبعدها رقّي إلى رتبة أميرالاي و عين قائدا لعموم الحرس الخديوي وبقي في هذه الوظيفة إلى أن أحيل إلى المعاش في ١٦ أكتوبر ١٩٠٢

و قبل خروجه على المعاش بعام انتدب اللواء ابراهيم رفعت باشا في مأمورية ليمهّد الطريق للخديو في جولته في مرسي مطروح والسلوم وواحة سيوة ، وقضى في هذه المأمورية ٤٢ يومًا، ثم رافق الخديو عباس حلمي الثاني في رحلته إلى السلوم،

المعارك العسكرية التي حضرها في السودان

قضى اللواء إبراهيم رفعت باشا ١١ عاما من حياته في السودان ، إذ قضى في السودان الغربي ست سنوات وفي السودان الشرقي خمس سنوات. وشهد المعارك التالية:

- معارك سواكن سنة ١٨٨٤م وسنة ١٨٨٥م
- معركة صرحي التي قتل فيها القائد النوركنزي
- معركة ابن النجومي سنة ١٨٨٩
- معركة طوكر سنة ١٨٩١م المعروفة بواقعة عثمان دقنة

النياشين التي حصل عليها

- ميدالية سواكن سنة ١٨٨٤ و١٨٨٥م
- النجمة المصرية
- النيشان المجيدي الرابع
- النيشان العثماني الرابع
- ميدالية استرجاع السودان

- الميدالية الانجليزية
- النيشان العثماني الثالث

علاقته برحلات الحج

أما علاقته برحلات الحج فيلخصها أنه كان قائد حرس المحمل (١٣١٨ هـ/ ١٩٠١م) ثم أميراً لركب الحج المصري في ١٣٢٠ هـ/ ١٩٠٣م و١٣٢١ هـ/ ١٩٠٤م و ١٣٢٥ هـ/ ١٩٠٨م. مع اختلاف في بعض الروايات من قبيل أن صورته المشهورة تسجل أنه أمير الحج في ١٩٠٧

ذكرياته عن يوم وقفة عرفة

يصف اللواء إبراهيم رفعت باشا الوقوف بعرفة و منظر جبل الرحمة وقد ملأه الحجاج حتى لم يبق منه موضع لقدم ، ويذكر ما لاحظه من أغلب هؤلاء من السودانيين واليمنيين والمغاربة، وأنهم يتخذون الجبل مسكناً لهم.

رمي الجمرات

تحدث اللواء إبراهيم رفعت باشا عن فكاهات الحجاج عند رمي الجمرات ذاكراً أن بعضهم كان يرمي الحصيات السبع دفعة واحدة ، و أن اليوزباشى عبد الوهاب حبيب أفندي لما جاء وقت رمي جمرة العقبة أخذ عساكر الحرس ورجموا إبليس دفعة واحدة بهيئة هجوم على عدو وانتقام منه.

أسعار الأضاحي في موسم الحج

كان ثمن الشاة من ريالين ونصف إلى ثلاثة ونصف ، وكان يؤخذ لشريف مكة على كل رأس من الغنم تباع للحجاج خمسة قروش من البائع.

وصف جدة و سكان جدة

وصف اللواء إبراهيم رفعت باشا جدة بأنها ميناء مكة العظيمة وتضم بيوتا رائعة يسكنها الأكابر من الأشراف وكبار التجار و'القناصل و تزدان بواجهات و

مشربيات مصنوعة من الخشب الهندي الأحمر المخروط ونشر صورة لبيت أعجبه هو بيت السيد عمر السقاف الشريف. أما سكان جدة فخليط من أجناس شتى من مكيين ويمنيين وحضرميين وهنود وترك وشوام ومصريين ، وعدد سكانها حوالي ٢٥ ألف نسمة و يبلغ عدد السكان بها خلال موسم الحج خمسين إلى ستين ألفاً ، ويمر بها من الحجاج كل عام نحو ١٢٠ ألفاً.، وبها حوالي ٣٣٠٠ منزل مبنية من الحجر الأبيض المستخرج من البحر، يتكون المنزل من طابقين إلي خمسة.

وصف ساحل جدة و مرافقها

وبالساحل مبني الجمرك، وبها خمسة جوامع وثلاثون مسجدًا مفروشة بالحصر الناعمة الجميلة، إلا أنها تكون مبللة عند رطوبة الجو، وهي مرتفعة عن مستوي الشارع بثلاثة أمتار، وليس بها بيوت خلاء، ولا ميضات ، وبها حمام واحد وفندقان، وأربعون قهوة، وصيدلية، ومكتب تعليم راق، ومستشفى، ويوجد بمقابرها مقبرة "حواء" المزعومة ، وبها ٨٠٠ صهريج لتجميع مياه المطر لبيعها للحجاج، ولكنها معطلة، ولهذا اضطر المحمل أن يجلب مياه الشرب من أعذب الآبار بواسطة سقائيين بأجر.

ولاحظ اللواء إبراهيم رفعت باشا أن جميع أهالي جدة مغرمون بشرب التبغ .

وصف غسل الكعبة

تم هذا الغسل في اليوم الخامس من ذي الحجة ، وكانت الكعبة بعد غسلها تفتح لمن يريد الزيارة بعد أن يدفع ريالاً قيمته عشرة قروش مصرية لمن يتولى فتح الباب من قبل السيد محمد صالح الشيبي أمين المفتاح وإذا كان الزائر غنياً أخذوا منه بضعة جنيهات.

صلاته في الكعبة

وقد دعي إبراهيم (باشا) رفعت أمير الحج ، هو وأمين الصرة لغسل الكعبة ، فلما دخل إليها صلّي في كل جهة من جهاتها الأربع ركعتين، ثم أخذ مع الجميع في غسيل أرضية الكعبة من الداخل بماء زمزم، وكان ذلك بمقشات صغيرة صنعت من خوص النخيل، ثم وزعت عليهم، ثم وزعت خرق بيضاء مبللة بماء الورد، والروائح

العطرية، وأخذ يمسح جدار الكعبة، وكان الزحام بالخارج قد اشتد لأخذ مياه الغسيل للتبرك بها، والمطوفون يأخذونها ويضعونها في قوارير يهادون بها أتباعهم من الحجاج، وكذلك يتخطف الناس مقشات الغسل، بل يتصارعون عليها، و هو يذكر أنه عند نزوله من الكعبة احتفظ بالمقشة التي كانت معه في بشكير كبير.

كسوة الكعبة

وقد أورد اللواء إبراهيم رفعت باشا نص الإشهاد الشرعي الخاص بكسوة الكعبة المشرفة متضمنا أنواع المنسوجات ومقاديرها، مثل الحرير الأسود والأطلسي و ذكر أن محرر الإشهاد الذي ينتدبه قاضي قضاة مصر .

ولخص إبراهيم رفعت باشا مظاهر الاحتفال بموكب الكسوة ومروره بشوارع القاهرة و رحلة الباخرة "النجيلة" المخصصة لحمل الكسوة بالإضافة إلى بعض الحجاج و وصف ارتداء جميع الركاب ملابس الإحرام قبيل بلوغها إلى مرفأ جدة.

الاحتفال بالكسوة

أرخ اللواء إبراهيم رفعت باشا لرحلة حجّه الأولي والتي كان قائدا للمحمل بها في العام ١٩٠١ بدءًا من يوم ١٦ فبراير ١٩٠١، وهو يوم بدء الاحتفالات بكسوة الكعبة المشرفة، حيث أتي المحمل من مقر وزارة المالية، ونقل داخل صناديق علي عجل إلي «وكالة الست» بالجمالية، حسب المعتاد ، ونقل جزء من الكسوة مع أحزمتها الحريرية المزركشة بالقصب من مصنعها بالخرنفش ، إلي المصطبة بميدان صلاح الدين المعروف بميدان القلعة، وفي عصر ذلك اليوم احتفل أيضًا بنقل كسوة مقام "الخليل إبراهيم عليه السلام"، والجزء الباقي من كسوة الكعبة من مصنعها إلي الميدان المذكور.

نقل الكسوة علي أكتاف الحمالين

" وكان نقل الكسوة علي أكتاف الحمالين، يحيط بهم رجال الشرطة، ويتقدمهم قسم من الجيش، ومعهم الموسيقي، وأرباب المزمار البلدي المعينون للسفر بصحبة المحمل، ويتقدم الكسوة مدير مصنعها عبد الله فائق بك مأمور الكسوة ممتطيًا جواده،

مرتديًا بدلة التشريفة الكبرى، وعلي يديه المبسوطتين كيس مفتاح الكعبة، ويتلو الكسوة كسوة المقام محمولة علي الأكتاف.

التقاء مساري الكسوة بالقرب من النحاسين

ووصل الموكب إلي سبيل كتخدا القريب من النحاسين حيث التقي المحمل ببقية الكسوة القادمة من "وكالة الست" بالجمالية، علي ظهر جمل، فدخل الموكب من النحاسين إلي الغورية فباب زويلة فالدرب الأحمر، فالتبانة، فالمحجر فميدان صلاح الدين، حيث أقيمت الاحتفالات بالكسوة بحضور الخديوي، والوزراء، والعلماء، والأعيان، ثم تحرك الموكب إلي العباسية للسفر بالسكة الحديد مصحوبًا بأرباب الطرق الصوفية، والروائح العطرية، والخرق الجديدة لزوم غسل الكعبة المشرفة، وبلغ جملة ما أنفق علي هذا الاحتفال مبلغ ١٠٠ جنيه مصري.

المحمل في جدة

وفي جدة سار موكب المحمل مصحوبا بالموسيقى العسكرية بين صفين من العساكر العثمانيين قدرهم إبراهيم رفعت بأربعمئة من العساكر النظاميين ومئتين من غير النظاميين.

تاريخ المحمل

يذكر اللواء إبراهيم رفعت باشا أن المحمل أعواد من الخشب علي شكل الهودج مربع، ذي سقف متدرج في الارتفاع إلي الوسط ينتهي بهلال، وفي العادة يسدل علي الهيكل الخشبي كسوة من الحرير، ويوضع أثناء السفر علي ظهر جمل.

السيوطي يقول بأن الحجاج هو من أحدث المحمل

و هو يشير اللواء إبراهيم رفعت باشا في كتابه إلي أن كتاب "الكنز المدفون" للسيوطي ذكر أن أول من أحدث المحمل في طريق مكة هو "الحجاج بن يوسف الثقفي"، والمحامل ترد من الأقاليم من الجهات الأربع: العراقي، والمصري، والشامي، واليمني، ويرجع تاريخ المحمل المصري إلي "شجر الدر" سنة ١٢٥٠ ،

وأنه كان هودجها حين حجّت، والمحمل المصري تصحبه كسوة الكعبة، والصدقات اللازمة للحرمين التي توزع علي فقرائهما.

زيارته لشريف مكة

وقد زار اللواء إبراهيم رفعت باشا شريف مكة الذي كان يلقب بسيد الجميع تمييزاً له عن بقية الأشراف ، وهو الحاكم الذي لا ينازع في أمر ولا يرد له قول ينفي ما شاء ،ويحبس من شاء ،ويعاقب من شاء، وبيده عقد الأمور وحلها ، وكل الحكام بمكة طوع إشارته.

والتقى اللواء إبراهيم رفعت باشا أيضا عدداً من إشراف المدينة وطلبوا منه أن تكون رواتب الأشراف بالريال المصري واشتكوا له من قيام بعض نظار التكية المصرية بمكة بعمل غير لائق وهو تحويل نوافذها إلى أبواب لحوانيت اقتطعت من مساحة التكية.

التِكِيَّة المصرية في مكة و التكية المصرية في المدينة

تحدث اللواء إبراهيم رفعت باشا عن مصارف الخيرات من المرتبات التي خصصتها مصر لأهل الحرمين ولعربان الطرق، وما تقوم به تكايا مكة، والمدينة من إطعام الفقراء، والمساكين، وهاتان التكيتان من آثار محمد علي (باشا) رأس الأسرة المالكة بمصر، وقد بلغ مقدار نفقات التكيتين في سنة ١٣٢١هـ / ١٩٠٣م مبلغ ٣٥٥٠ جنيهًا مصريًا، وقد أورد كشفًا بما تنفقه يوميًا تكية مكة، من مسلي، وأرز هندي، ودقيق، وملح، وحمص، وحطب، ومقررات اللحم الجملي والضأن اليومية، ومرتبات تصرف من الأوقاف المصرية بالحرمين للمشايخ، والعلماء والأرامل والأيتام بالاسم.

رفع تقريرًا مصورًا للخديو لزيادة مقررات التكية

يروي اللواء إبراهيم رفعت أنه وجد أن الفقراء قد تضاعفوا ثلاثة أمثال عما هو مقرر لهم، فصعد إلي سطح التكية والتقط صورًا للفقراء وهم يتضرعون بإنزال سحائب الرحمة علي محمد علي (باشا)، ولما عاد إلي مصر رفع تقريرًا مصورًا للخديو الذي أمر بزيادة مقررات التكيتين المصريتين بالحرمين.

التقرير المالي عن ميزانية موكب الحج

بلغت ميزانية موكب الحج في عام ١٣١٨هـ ١٨،٨٩٣ جنيهاً مصرياً هي مرتبات رجال المحمل جميعهم مدة ثلاثة أشهر ومرتب أمير مكة والمبالغ المقدرة لإشرافها وللعربان ولـلتكيتين المصريتين في مكة والمدينة وجميع النفقات الأخرى من أجرة جمال وثمن علف دواب الخ.

قصة إلغاء الحج الفردي

روى اللواء إبراهيم رفعت باشا أنه في العام ١٩٠١ أبلغه ناظر الداخلية مصطفي باشا فهمي أنه بناءً علي اجتماع مجلس النظار فقد تقرر أن يكون الحج جماعيًا وإلغاء الحج الفردي لأول مرة في تاريخ مصر، وأنه علي جميع الأشخاص الذين يودّون أداء فريضة الحج أن يرافقوا قافلة المحمل ليكونوا تحت رعاية أميره، وملاحظة حراسه، حتي إذا مرض أحدهم وجد في الحال الطبيب، والدواء، حتي يتقي الوباء الذي نقل الحجاج جراثيمه في العام السابق إلي القطر المصري ففتك بالناس فتكًا ذريعًا، وتكلفت الحكومة بنفقات الحجاج البالغ عددهم حوالي ٦٠٠ حاج، وذلك بالبر والبحر من السويس إلي العودة.

كيف نظمت الحكومة المصرية الحج

وقررت الحكومة أن يدفع كل حاج في الدرجة الأولي ٧٠ جنيهًا مصريًا، وأن يصطحب معه علي الأكثر ٥ جمال، وأن يدفع حاج الدرجة الثانية مبلغ ٥٠ جنيهًا، وله صحبة جملين فقط، واعتبرت الحكومة هذه المبالغ ضمانًا عندها تحتسب منه نفقات الحجر الصحي والسفر، وتعهدت الحكومة برد الباقي لمن دفع، ولم يخف اللواء إبراهيم رفعت باشا رأيه القائل بأن هذه المبالغ كانت مثبطة للناس عن الحج، فلم يحج إلا العدد القليل، وهذا ما كانت ترمي إليه الحكومة من رفع القيمة.

وفاته

توفي اللواء ابراهيم باشا رفعت عام ١٩٣٥، ودفن بالقاهرة.

الفصل العاشر رحلات الأمير محمد علي توفيق

ولي العهد الذواقة الذي ضاع ذكره و بقي قصره

الأمير محمد على توفيق (١٨٧٥ ـ ١٩٥٥) هو الابن الثاني للخديو توفيق، و هو شقيق الخديو عباس حلمي الثاني (١٨٧٤- ١٩٤٤) وقد تربيا معا ودرسا معا في سويسرا ثم في فيينا عاصمة النمسا ، فالفارق بينهما في العمر سنة واحدة ، وقد ولد الأمير محمد على توفيق في ٩ نوفمبر ١٨٧٥ و كان بمثابة الرجل الثاني في استحقاق العرش أو بمثابة ولى عهد شقيقه الخديو عباس حلمي حتى رزق الخديو بابنه الأمير محمد عبد المنعم في ١٨٩٩ الذي اصبح فيما بعد وصيا على الملك احمد فؤاد الثاني ١٩٥٢- ١٩٥٣ ابن الملك فاروق أما الأمير محمد على توفيق فقد كان وصيا على الملك فاروق ١٩٣٦-١٩٣٧ . و كان الأمير محمد على توفيق كذلك هو ولى عهد الملك فاروق منذ تولى و حتى رزق الملك فاروق بابنه الملك أحمد فؤاد الثاني في ١٩٥٢ .

وهكذا فان الأمير محمد على توفيق كان ولياً للعهد أو الرجل الثاني في البروتوكول بعد رئيس الدولة على مدى فترة طويلة يصل الفارق بين بدايتها ونهايتها الى سبعين عاما ، لكنه بالطبع لم يكن وليا لعهد الملك فؤاد ١٨٦٨ ـ١٩٣٦ إذ أنه مع إعلان الملك فؤاد ملكاً في ١٩٢٣ أعلن عن نظام وراثة العرش الذي يجعل ولاية العهد لابنه الملك فاروق الذي كان قد ولد في ١٩٢٠ ، كذلك فقد كان الأمير كمال الدين حسين بمثابة ولي لعهد والده السلطان حسين كامل وتنازل عن ولاية العهد، وعن خلافة والده ،

هوايته للعمارة الإسلامية و للنباتات النادرة

كانت للأمير محمد على توفيق اهتمامات حضارية متعددة فقد كان مهتما بالعمارة الإسلامية كما كان عاشقا للنباتات النادرة، ولبعض الأجزاء المصبرة من الحيوانات من حصيلة صيده في رحلات الصيد التي كان يقوم بها .

و قد جعل الأمير محمد على توفيق من حديقة قصره الذى بناه في المنيل على مساحة ٦٢ الف متر مربع تحفة رائعة للنباتات النادرة ، على نحو ما كان القصر فريدا ومبهرا وبسيطا أيضا في تصميمه و في محتوياته وتنسيقه .

وهو الذي تولى تصميم هذا القصر والاشراف على بنائه في جزيرة الروضة ، و لايزال القصر قائما وان كان استخدامه يتعرض لما يتعرض له كل أثر في مصر ، وقد تم تأجيره في مرحلة من الزمن لشركة سياحية فرنسية فاستخدمت بعضه كفندق لكن المصريين كالعادة يتربصون بأنفسهم .

هوايته للرحلات و الكتابة عنها

عرف الأمير محمد على توفيق بالرحلات ونشر بعض الكتب المتميزة عن هذه الرحلات :

- «رحلة إلى أمريكا الشمالية»،
- «رحلة الصيف إلى البوسنة والهرسك»
- «رحلة إلى أمريكا الجنوبية»
- «الرحلة اليابانية».

حياته العائلية

عاش الأمير محمد على توفيق حياته كلها عزبا فلم يتزوج، وان لم يخل أمره من علاقات كانت مقدمة لاقتران لم يتم ، و قد قيل إن السبب في عدم زواجه كان سببا طبيا نتيجة إصابته في إحدى رحلاته .

مواقفه السياسية

يذكر للأمير محمد على توفيق موقفه الإيجابي في تأييد ثورة ١٩١٩ شأنه شأن أمراء البيت الملك جميعا ، وفيما بعد فان البريطانيين كانوا يهددون بتوليته خلفا للملك فاروق على نحو ما حدث في حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ لكن الامر كما نعرف لم يتعد التهديد المباشر فقد كان الأمير محمد على نفسه رجلا عاقلا رغم ما يشيعه المصريون بطبيعتهم اللاذعة عن ميله للخرف ، لكننا لا نجد في تصرفاته العامة ما يؤيد ظنونهم .

مقدمة مجلة البيان عن تحطيم الأمير لصورة الارستقراطية السجينة

نشرت مجلة البيان التي كان يصدرها الاديب العظيم الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي في ٣٠ ابريل ١٩١٤ مقالا جميلا عن الكتاب الذي كتبه الأمير محمد علي باشا عن الرحلة الأمريكية .

وقد تحدثت المجلة في هذا المقال عن نجاح الأمير في تحطيم ما أسمته بالعظمة السجينة، أو الأرستقراطية المحتجبة ، وقدمت بهذه المناسبة ما هو أهم بكثير من المناسبة نفسها بكثير إذ استعرضت تحليلا اجتماعيا متميزا ببيان جميل قريب في عرضه من الأسلوب المشرق الذي عرف به الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في مقاربة القضايا الاجتماعية :

" كان شعار الأرستقراطية بالأمس الاحتجاب والاختفاء، وكان المبدأ السائد بين الأرستقراطيين اختفوا واحتجبوا!. تلكم هي العظمة السجينة، وتلكم هي الأرستقراطية المحتجبة، عظمة لا يشهدها إلا خدمها وحرسها كما يشهد السجين سجانه، وأرستقراطية لا يستمد منها التاريخ الاجتماعي، وإن كان يستمد منها التاريخ المالي للأمة فإن من حسنات الرفاهية أن في إسراف الأغنياء مصلحة الفقراء، وفي ملاذ [يقصد : ملذات] النبلاء معايش للتجار والباعة وأضرابهم ممن تحتاج الرفاهية وأبهة الإمارة إلى متاعهم وسلعهم ومباهجهم ومناعمهم [يقصد متعهم] ."

فلسفة مجلة البيان في وصف جدوى التباين في الثروة

" ولو أصبح نصف الأمة أغنياء مبذرين مسرفين، لأصبح سواد النصف الآخر قصابين وبدالين، ويومذاك لا يكون تاريخ الأمة إلا جداول وكشوفاً بحساب المصروفات والمقبوضات، وحسبك من مغبة ذلك أن الأمة لا تعيش إلا على أيدي المبذرين، وفي جيوب التجار، وأما العقول وأصحابا، والنبوغ وأربابه، والعلم وذووه، والأدب وأنصاره، فسلام عليها وعليهم، فهي وهم ثقال الظل في جناب الأغنياء، وحضرة الكبراء وهي وهم ليسوا من مستلزمات الرفاهية، ولا من متطلبات التبذير والإنفاق!.

" على أن التطور الاجتماعي لم يدع سبيلاً إلى ذلك، وشاء التاريخ أن يكون كاتباً لا حاسباً، ومقرراً لا طارحاً ولا قاسماً، فأصبح الأمراء والنبلاء وجمع من الأغنياء

يعملون لحياة الأمة وغذائها الفكري، مثل ما يعمل ذلك رجال الأمة، فقراؤها وأذكياؤها وعلماؤها وأدباؤها"

المجلة تمتدح بعض الأمراء لعملهم بعقولهم

" بل إن في الأمراء الكرام الأماجيد، كثيرين يعملون بعقولهم الخصبة، وأرواحهم الكبيرة ونفوسهم الحارة الأبية، وجيوبهم الفياضة، وعزماتهم الثواقب الماضية، وهممهم البعيدة النائية، على خدمة الأمة أكثر من علمائها، لأن خدمتهم تطّرد طردين، وتنساق مساقين [طريقين] ، من عقولهم - وما أمتعها ، ومن أيديهم ، وما أسخاها وأسرعها "

نبل الروح ونبل الدم

" ومن ثم كانت عظمتهم عظمتين، ونبلهم نبلين، نبل الروح ونبل الدم، وذلك لأنه إذا جرت الروح الديمقراطية في دماء الأرستقراطيين فعملوا على خدمة الأمة واكتساب حبها وثقتها، ومزجوا تاريخهم بتاريخها وخلطوا حياتهم بحياتها، ارتفعت عظمتهم، كمقياس الحرارة، ترتفع درجاته بتأثير الحرارة الخارجية"

" ولا تسمو العظمة ولا تزداد إلا أن يكون هناك ارتباط بين العظيم، بل ينبغي أن يجمع إليه حبهم، فإن الاحترام نوع جاف من الحب فإذا ظفر العظيم من الناس بالاحترام والحب، واستقر منهم في أسماعهم وأبصارهم وذاكرتهم وأفئدتهم، فسيظفر ذكره من جيل إلى جيل، ويثب من عصر إلى عصر، ويوصي به القرن الذي يمضي أخاه القرن الذي يقبل، وسيجري اسمه بين العصور المتعاقبة المترادفة حتى ينتهي إلى الأبدية، وهو أقوى ما يكون ساقاً، وأشد ما يكون عصباً، وأطول ما يكون نفساً، وكذلك يكون الخلود.

توظيف الأمير محمد علي توفيق علمه و ماله للارتحال المفيد

بعد كل هذه المقدمات الطريفة المحبوكة يصل مقال مجلة البيان إلى المديح المباشر للأمير محمد على توفيق حيث يثبت له الفضل في الهدف من ارتحالاته ، و ما سجله من هذه الرحلات التي زار فيها بلاد الغرب و اليابان و الولايات المتحدة الامريكية :

" ... وقد ظفر بجملة [بكل] ذلك الأمير الجليل محمد علي باشا شقيق الجناب العالي الكريم، فقد رأى من نبوغه ونشبه مادتين عظيمتين، وألقى من علمه وماله قوتين كبيرتين. فوقفها جميعاً على رقي الأمة وتقدمها، ورأى الأمة مفتقرة في كل فروع الحياة وأصولها، فأعانها في كلها، وأخذ بيدها في جميعها.

" رأى [الأمير] رأي الشاعر تومبسون أن استخدام الجهد في شريف الأعمال ومجيد الأفعال، وحميد الآثار، والنهوض بأهل بلده من مهاوي الجهل إلى مراقي العلم، هو عنصر الحياة، فكان منه الخطيب والكاتب والأديب والبحاثة والمفكر والرحالة، فهو يعيش عيش أهل النبوغ وجبابرة العقول في الأجيال الماضية والأجيال المستقبلة، ينعم من الأولي بالبحث والتنقيب، ومن الأخرى بالعمل للمستقبل وتخليد المآثر والمكرمات.

الأمير يعرف قيمة السفر في ترقية حال الأمة

ووجد أن العمل على ترقية الأمة الغريرة، وتزكية الشعب الصغير، يتطلب السفر والتجواب في البلاد العظيمة، والممالك المتحضرة الراقية، ليعلم سر تقدمها وأسباب تأخرنا، فزار بلاد الغرب ثم بلاد اليابان، وجعل يبحث في شؤونها تارة بنظرة الفيلسوف، وطوراً بنظرة البحاثة، وطوراً آخر بنظرة الاجتماعي وحيناً بنظرة الأنثربولوجي ثم عرج بعد ذلك على الولايات المتحدة، ليرى مبلغ مدينة العالم الجديد ويشهد عظمة الأميركان، ويصور لنا أخلاقهم وعاداتهم، وعجائب مدينتهم، وغرائب أمورهم، ويعلم الفروق الاجتماعية والسيكولوجية، التي ترجع إليها عظمتهم وانحطاطنا.

تصوير لقاء المجلة مع الأمير في قصره

".... كان لنا الشرف الجزل أن زرناه في الشهر الماضي بقصره في الروضة شاكرين له إهداءه إلينا رحلته الجليلة، فوجدنا من لدنه أخلاقاً ديمقراطية عذبة، وشمائل عالية، يمتزج فيها أدب العثمانيين، بوداعة المصريين، وحديثاً جذاباً رقيقاً، لا أثر فيه للتكلف، بل تتجلى فيه شخصيته، ونفسه وعقله، وخلقه، وتلك مزايا الرجل النابغة، فإن النبوغ يجري في تضاعيف النفس مجراه في أوعية الذهن، وما النفس والذهن إلا ليتغذيا من بعضهما. ولو جئت بأنبغ النوابغ، وأذكى الأذكياء، وكان

مضطرب النفس، مكدر الروح، مربد العواطف، ثم أردته على أن يظهر نبوغه وذكاءه، لا تطبع اضطراب نفسه، وكدر روحه، في قوله وكتابته.

" وصفاء وجدانات سمو الأمير الجليل [أي حالته الوجدانية] ، وحلاوة أخلاقه، دلائل على عظمته، إذ يقول استرابو الشاعر أنك لا ترى عظيم الذهن إلا وهو عظيم النفس، عظيم الخلق، عليم بالنظر إلى قلبه ونفسه، وإلا فكيف يعرف النظر إلى قلوب الناس واستقراء ضمائرهم ووجدانهم، من تكدرت نفسه واحتجبت وراء سحائب من الأكدار والأقذاء؟.

وصف مجلة البيان لكتاب رحلة الأمير

"وقد قرأنا رحلة الأمير فما رأينا إلا الوصف الدقيق، والنقد المتين، والاستنتاج الراجح، والملاحظة الدقيقة، والفكاهة المستملحة، بل رأينا روحاً شرقية وثابة، قد خلصت من أغلال الجمود، وقيود المحافظة، تعجب بالجليل من مدينة الغرب، وتلفظ السخيف منها، وكم فيها من سخيف، وتستحسن الصالح من عادات الغربيين، وتعيب على الغث منها، وكأين فيها من غث.

" رأينا رسوخ العقيدة، وصدق البأس، وشدة الإيمان، وشدة العارضة والغيرة على الشؤون المصرية والمصالح الشرقية، والحرص على الشرائع الإسلامية، والقوانين الدينية، والأبحاث السيكولوجية، والاستنتاجات الأنثربولوجية".

ثناء عثمان مرتضي باشا على ما سجله الأمير عن رحلته

يشير مقال مجلة البيان بالثناء إلى أن الأمير تخير لكتابة مقدمته " قلم العالم الكبير والقانوني المفكر، سعادة المفضال عثمان مرتضى باشا:

"..... أبدع [عثمان مرتضى باشا] في وصف التطورات المادية والفكرية والاجتماعية التي تقلبت فيها الجماعات البشرية، وعظمة الشرق الماضية، وما ظهر فيه من المدنيات القديمة وأنواعها واستطر إلى الإسلام ومبادئه وأغراضه وتأخر الشرق وتقدم الغرب، ومصر الحديثة وأيادي الأسرة الخديوية الكريمة عليها وختم المقدمة بماهية الرحلة ومزاياها.

ونحن فلو أردنا أن تقتطف للقارئ ما جاء في عرض الرحلة من الآراء الناضجة والأبحاث الجليلة، والملاحظات الجميلة، لاستنفد ذلك صفحات كثيرة ولكنا نجتزئ هنا بالشيء اليسير منها، ومن مقدمتها الجليلة.

حديث الأمير عن استنتاجاته لأصول الهنود الأمريكيين

يقول دولة الأمير في مسألة أصل الهنود الأمريكيين لما رأيت (في منشوريا) اليورجوت وقارنتهم بصور الهنود الأمريكيين التي رأيتها في بطاقات البريد (الكارات بوستال) التي اشتريتها في مكدن، علمت وقتئذ أنه لا بد أن تكون هنود أمريكا من هؤلاء اليورجوت، ومن سكان شمال آسيا وليس ببعيد أنهم هاجروا إلى هذه البلاد في الزمن القديم من طريق كامتشتكا.

" وعلى ذلك يكون الآسيويون هم البادئين في كشف أمريكا قبل كريستوف كولومب، ولكن لما كانت حالتهم وحشية ومعارفهم قاصرة، واختلاطهم بباقي العالم معدوماً. ولا توجد بينهم وبين الأوروبيين مواصلات ولا مكاتبات فإن اكتشافهم لم يعلم به أحد، ومع ذلك لا يمكن تأييد هذا الرأي بإقامة برهان عليه من معلومات هؤلاء الهنود أنفسهم لأنهم لا يعرفون هم أنفسهم أصلهم ولا يدرون تاريخهم" .

زيارة منشوريا ومقارنتي سكانها بأولئك الهنود الأمريكيين

" فإذاً لا يمكن الاتيان ببراهين قاطعة على صحة هذا الرأي إلا مثل هذا الاستنتاج الذي وصلت إليه أثناء زياراتي منشوريا ومقارنتي سكانها بأولئك الهنود الأمريكيين، والشيء الغريب الذي لفت نظري في هذه المعروضات وجود (رأس لجام) مكسيكي بد رسم الهلال وحديدته عربية فقلت إن ذلك من مخلفات العرب وآثارهم فإننا نعلم أن الإسبانيين هم الذين أتوا أولاً وحاربوا مكسيكا"

" وبما أن أسبانيا كانت ملكاً للعرب وبعد نزعها من أيديهم لابد وأن تبقى فيها آثارهم الحربية والاسبانيون الذين حضروا لفتح مكسيكا ربما كان بينهم من أحفاد العرب أو من المعجبين بأدواتهم الحربية من أحضروا معهم هذه المخلفات التاريخية وبعدها انتقلت من مكسيكا إلى هنا على أنها تحف تباع للسائحين والذي أيد فكرتي هذه وجود سروج عربية بكامل أدواتها معروضة أيضاً للبيع وهي بلا شك من مخلفات الأندلسيين المغاربة".

فقرات من خطبة الأمير في الاتحاد السوري في نيويورك

" لست ممن يودون المعيشة الهادئة بدون أداء واجبات الأمة، لأني أرى عدم الالتفات إلى هذه الحقوق المقدسة من أكبر الذنوب وأعظم العيوب والنقائص. إن مهمتنا ليست في الحقيقة من الصعوبة بمكان أن اجتمعت كلمتنا وقويت الإرادة في الحصول على المركز العالي الذي نريد أن نختاره بين الأمم.

" والطريقة الوحيدة التي أعتقد أنها توصلنا إلى غايتنا هي أن يعتقد كل فرد منا أنه قادر على خدمة بلاده بصدق وأمانة، يتحمل الصعوبات مهما كبرت، والمشقات مهما كثرت".

يتحدث عن انحيازه للآداب الشرقية، والأخلاق الإسلامية

" إن التهتك والتبرج بلغا أقصى غايتهما، ومما يملأ القلب أسفاً إن ذلك لم يبق مقصوراً على البلاد الغربية فإنه أخذ يتسرب إلى بلادنا وينتشر فيها بسرعة مدهشة، فأين آدابنا الشرقية وأخلاقنا الإسلامية، إني أرى إهمالاً شديداً في المحافظة على عوائدنا القديمة"

" وقد التبس الأمر على الشرقيين في فهم معنى الحرية وأساؤوا التصرف في الانتفاع بها وتذرعوا بها إلى هتك حرمة الآداب وتقويض دعائم الأخلاق الكريمة، ولو تيقظوا لعلموا أن الحرية حق من حقوق الرشيدين من عباد الله جل شأنه، منحهم إياها ليتسعينوا بها على تنظيم أحوالهم وترقية شؤونهم واستعمال مواهبهم فيما خلقت لأجله والتمتع بما أباحه الله لهم، فليس في معنى الحرية الخروج عن حدود الآداب وخرق سياج الفضائل، فإن ذلك سائق إلى مهاوي الهلاك"

الأمير يستعرض التطور الدلالي لكلمة الحرية

" إن كلمة حرية كان يقصد بها أولاً تخليص الإنسان من أطوار العبودية والرق يوم كان القوى يتغلب على الضعيف فيأخذه أخذ عزيز مقتدر ويسخره في مصالحه كحيوان أعجم مملوك له يتصرف فيه كيفما شاء، فلما استنارت العقول رأت أن ليس لمخلوق حق السيادة على آخر، وإن كل عبودية من الإنسان للإنسان حطه ودناءة

وإن الإنسان سيد نفسه إلا أمام خالقه، ولا تفاضل بين بني آدم إلا بمقدار ما لهم من المدارك وفضائل الأخلاق ومحاسن الآداب.

هذا هو معنى الحرية التي جعلها الحق جل شأنه من حقوق عباده، وهي بهذا المعنى أكبر أركان سعادة الإنسان، فيها يحيا العدل ويموت الظلم، وبها يتخلص الإنسان من قيود الذل إلى بحبوحة العز، بها تكون للحياة قيمة، وبدونها لا معنى للحياة، فإذا خرج الإنسان بالحرية عن هذه الدائرة إلى انتهاك الحرمات والانغماس في الشهوات، وإطلاق العنان للنفس، انقلبت إلى حرية العجماوات السائحة في بواديها، فهام في ظلمات الضلال، وإذا كانت هذه الحرية المطلقة هي غاية المدينة الحديثة فجدير بها أن تسمى همجية. .

عثمان مرتضى يستعرض رأي الأمير في الدين والمدنية

" ظهر في الشرق مدنيات كثيرة ترجع كلها إلى مصدرين: أحدهما رقي تدريجي وراثي في الهيئات الاجتماعية. وثانيهما: رقي منبعث عن الفكرة الدينية.

" فمن النوع الأول مدنية المصريين القديمة التي من أهم مميزاتها رقي الفكر وتوجيهه إلى إتقان الصناعة واتجاه العقول إلى نور العلم في عصور مطبقة الظلام. ومن الأول كذلك مدنيات اليونانيين المقتبسة من المدينة المصرية ثم مدنيات الآشوريين والفينيقيين والقرطاجنيين.

"أما مدينة النوع الثاني فقد ظهر في الشرق ثلاثة خضع لمبادئهم الدينية القسم المتمدين في العالم. ظهر أحدهم في مصر وهو موسى عليه السلام، أرسله الله تعالى ليضع للعالم القوانين التي تلائم ذلك العصر هداية من الخالق ونوراً لبني البشر. وظهر الاثنان الأخيران في الشام وبلاد الشام. أحدهما عيسى عليه السلام، أقام للناس قبساً سطع نوره حتى بهر العالم إذ كان سراج هذا القبس مستخرجاً من معدن الآداب العالية والأخلاق الكريمة هداية كذلك من الخالق ونوراً لبني البشر أجمعين.

مديح النبي عليه الصلاة والسلام

" ثم ظهر بعده هذا العربي الهاشمي الذي فاق الأنام في علو المدارك وسمو الأفكار. كما كان أكبر وأقوى من خدم الإنسانية بأسرها بإرشاد الناس بالحكم القويمة

والتعاليم الراقية الكريمة التي بعثه الله لنشرها في كل الكون سلاماً وبركة ورحمة للعالمين.

اعتزاز كتاب رحلة الأمير بروح الإسلام

" بزغ نور [تعاليم الإسلام] من سماء بلاد العرب ثم انتشر في أرجاء آسيا، وسرعان ما انتقل إلى أفريقية الشمالية مبتدئاً بمصر ماراً ببلاد المغرب مجتازاً بحر الروم حتى وصل إلى أوروبا من مطالع الأندلس. ففك المقول من أسرها، وأرشدها إلى أن لها حقوقاً وعليها واجبات، وأضاء لها مناهج الحياة العلمية والعملية، وعلمها كيف نتيجتها فخرجت بذلك من الظلمات إلى النور ومن الموت إلى الحياة بتلك الروح الجديدة روح التمدين الإسلامي والزكاء الشرقي.

"طافت هذه الروح على البشر منذ ثلاثة عشر قرناً تدعو الناس إلى الإخاء والتعارف بين جميع أفراد المعمور على اختلاف أجناسهم ومعتقداتهم وتباين مذاهبهم ومشاربهم، وتدعوهم إلى التضامن الإنساني في كل أطوار حياتهم. وتدعوهم إلى جعل العدل أساساً لمعاملاتهم الاجتماعية والسياسية كما تدعوهم إلى استعمال الرحمة والحنان. حاثة على مكارم الأخلاق حاضة على التمسك بوسائل العمران، وقد رسمت لهم طريقاً جديداً لم يسبق له مثال في السواء والسهولات [أي التسيرات ، و السهولات جمع سهولة] وتقريب المسافة في تحقيق وصول الآمال للسعادة الدنيوية والنعيم الأبدي.

سمو العلاقات الإنسانية في الإسلام

"تنادي تلك الروح الجنس البشري بأعلى صوتها : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. وتقول لهم: وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان وتقول: إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون. كما تقول حاضة [أي : محفزة] على الحركة والعمل : وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وإن سعيه سوف يرى. وتقول مهبط تلك الروح صلوات الله عليه واطلبوا العلم ولو بالصين وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.

اعتقاده أن نهضة الغرب لم تحدث الا بعد اتصاله بالشرق الإسلامي

دين كله تعارف وإخاء وعدل وعلم ورحمة وحركة وعمل وفكر وتنبيه كان من شأن انتشاره في أرجاء الدنيا أن تيقظ لحكمه الناس أجمعين ، المؤمنون به وغير المؤمنين وليس من الغريب إن هذه الحركة الإسلامية كما مدنت الشعوب المتبربرة وأكسبتهم مدنية أقر لهم بها التاريخ كان لها صدى في الغرب الذي كان حينذ تائهاً في ظلمات الجهالة، غارقاً في لجج الهمجية، لا يبصر الضوء إلا من سم الخياط ولا يتنسم الحياة إلا من مطالع الشرق لأن تلك الحركة الإسلامية لم تجيء لتخلص بمزاياها أقوى معينين بل هي جاءت لسعادة الإنسان من حيث هو إنسان.

" أفاقت [يقصد : أيقظت] كل هذه الحركات التمدينية الشرقية الغرب من رقدته الطويلة التي كان تائهاً فيها، كما أيقظت عزيمته التي طال عليها الفتور فارتحل النشيطون من أبنائه إلى بلاد المشرق واغترفوا من بحاره العذبة ومناهله الرطبة كل ما كان غريباً منهم مجهولاً لديهم من أنواع المصنوعات والحرف وأخذوا من ذلك الحين يشمرون عن ساعد جدهم مشتغلين على الأخص في الماديات متنقلين في الصناعة والتجارة والزراعة والملاحة من سيء إلى حسن ومن حسن إلى أحسن ومن كامل إلى أكمل.

" سار الغرب على هذا النمط المرغوب فيه جداً في جميع مرافق الحياة الضرورية والحالية والكمالية حتى نال من المنعة والقوة والسلطان الدرجة التي هو عليها ألان وسبق الشرق في الماديات بعد أن كان مسبوقاً، وساده بعد ان كان مسوداً وحقق الحكمة الشرقية لكل مجتهد نصيب ... "

طريق الحضارة واحد

" وعجيب إن الغرب في سيره إلى الحضارة لم يطرق إلا نفس الطريق الذي بذل الشرقيون وأجدادهم الكرام مهجهم الغالية في تمهيده وتنسيقه، وهم لوقوف الفكر الشرقي عند الحد الذي وصلت إليه مصنوعاتهم ومتاجرتهم وملاحتهم وعدم تقدمهم فيها إلى الإمام بنفس الخطى السريعة التي خطوها في الأدبيات بوجه أعم، وفي علوم الفلسفة والبلاغة والمنطق وعلم الكلام بوجه أخص، مضافاً إلي ذلك تفريط الخلف في المحافظة على متروكات السلف سيما الماديات منها كانوا قد ضلوا عنه وجعلوا

غيرهم من هؤلاء الغربيين الذي كانوا وراءهم فيه بمراحل يسبقونهم إليه واكتفوا بقبول تعويض بسيط تاريخي عما فقدوا بأن نالوا من الغربيين إقراراً لهم بفضل السبق عليهم فيه.

تفسيره لسبب تأخر الشرق

" كبا [يقصد : تعثر أو تأخر] الشرق في الماديات أو وقف ساكناً عند حد جهاد أبنائه الأولين. وخصص النفيس من أوقاته الغالية في الاشتغال بتلك الأدبيات مهملاً الماديات التي عليها قوام الحياة، والتي هي موارد الثروة الحقيقة، فبعد أن كان مطلع شمس الفنون وينبوع الصنائع والعلوم، وبعد أن كان أستاذ الغرب فيها من غير مراء انقلب حاله من أحسن إلى حسن ومن حسن إلى سيء على العكس تماماً من الخطة العمرانية الحديثة التي اختطها الغرب لنفسه، بل أصبح الشرق يلتمس نوره من زهراء الغرب. كل ذلك لأن الشرق وجه التفاته للأدبيات دون الماديات التي أهملها كل الإهمال ولأنه خفف سيره إلى الأمام في وارد الرزق والثروة في حين أن الغرب كان ينهب الأرض نهباً طلباً للاتساع في الممتلكات والمقتنيات لا يعرف للقناعة حداً ولا تحجبه عن نيل غاياته ومطامعه شم الجبال ولا لجج البحار بل حملق [نظر بتمعن] إلى السماء يريد استخدامها أيضاً حتى خضعت لمشيئته الأرض وما فيها وما عليها" .

" بعد ذلك كان حقاً على الشرق أن يترك للغرب تراثه القديم تراث العز والسلطان تراث العلم والعرفان والثروة والسعادة في اليوم الذي تخلى فيه عن تلك الصفات والمميزات التي ضمنت له قديماً جمع هذا التراث.

المصنوعات و المخترعات أيقظت الشرق من نومه

" نعم نام الشرق نوماً عميقاً واستغرق فيه حتى أيقظه من أوروبا ومن أمريكا حركة قوية تحمل عجائب المصنوعات وغرائب المخترعات براً وبحراً وهواء، وأرهقه مناد يناديه كيف حلا لك النومة وهو مر علقم و [كيف] لذّ لك الرقاد وهو السم الزعاف، ثم ذكره بنظرية تنازع البقاء وبقاء الأنفع فلقي هذا الصوت في بلاد اليابان آذاناً صاغية وقلوباً واعية في أمة نشيطة كانت خير مثال يتمنى كل شرقي أن يحذو حذوه وأن يتبع خطاه.

"رن هذا الصوت في مصر فتداركه هذا الرجل الكبير الجليل القدر المعدود واحداً من اثنين نبغاً في عصره. هو الحاج محمد علي باشا رئيس عائلتنا المصرية الملوكية الكريمة فالتفت للأدبيات والماديات على السواء، ووجه لهما عنايته الفائقة النادرة المثال فانتشل الأمة مما كانت واقعة فيه من المهاوي السحيقة. فالمدارس أنشأها والإرساليات العلمية قررها وتعهدها.. ، والترسانات والأرصفة والجسور والترع والقناطر وكل شيء حيوي في البلاد باشره بنفسه واستخدمه لقائده بلاده، والجيش والبحرية قوّاهما بعد أن رباهما على النسق الحديث المتين، وبأصالة حكمه وحسن درايته وطد الأمن في البلاد وافتتح القسم العظيم من الأقطار السودانية وضمها على بلاده العزيزة. وعليه فإن مصر مدينة بتمدينها الحديث لتلك العائلة الخديوية الكريمة، وتاريخ مدينتها الحديثة مقترن بتاريخ الحكم العلوي من غير مراء ولا نزاع على آخره إلى آخره."

حياة الأمير بعد ١٩٥٢

غادر الأمير محمد على توفيق مصر بعد قيام حركة ٢٣ يوليو فأقام في لوزان بسويسرا.

وفاته

توفى الأمير محمد على توفيق في ١٧مارس سنة ١٩٥٥ في لوزان، ودفن بالقاهرة.

المحتويات

هذا الكتاب ٥

الباب الأول الشعر يحيي الزعماء ٩

الفصل الأول رثاء الجارم لسعد زغلول باشا ٩

مكانة الزعيم سعد زغلول في التاريخ ٩

كيف قاد سعد الثورة ٩

تصدي سعد زغلول لترهيب الاحتلال ١٠

تصويره لعناصر القوة في زعامة سعد زغلول ١٠

سعد : ثلاثة أحرف ١١

كيف شق سعد زغلول طريقه للنصر ١١

الإيمان بالجهاد ١١

إعجابه بصلابة سعد زغلول ١٢

افتتانه بخطابة سعد زغلول ١٢

طبيعة الثورة في نفسية سعد زغلول ١٣

شرف الخصومة ١٣

طهارة سعد زغلول ١٣

العزاء لمجلس النواب ١٤

عزاء المريدين ١٤

وصف الجارم لمرض سعد زغلول ووفاته ١٤

الحالة النفسية لزوار سعد ١٥

تصويره جزع الشعب على سعد ١٥

كيف تلقى الجارم نبأ وفاة سعد زغلول ١٥

خطابه الشهير لمشيعي سعد زغلول ١٦

فلسفة الزعامة ١٦

الفصل الثاني **١٧**

قصيدة الجارم في مديح النحاس باشا زعيم الأمة **١٧**

منحة الله لزعيم الأمة ١٧
فرحة مصر بابنها ١٨
القصيدة تخاطب زعيم الأمة ١٨
المجد والنصر لا يأتيان إلا لمن يستحقهما ١٩
الشعب يحيط بزعيمه ويتحرك معه ١٩
النحاس باشا ذو الصدر المرتفع ٢١
الزعيمان ومصر ٢٢
الفتح المبين ٢٣

الفصل الثالث **٢٤**

قصيدة الجارم في رثاء محمد محمود باشا **٢٤**

مقارنة قصيدته في رثاء محمد محمود بقصيدته في النقراشي ٢٤
مقارنة قصيدتيه بقصائده في الزعماء والشعراء ٢٤
أخذ من الفنان مختار فكرة التمثال والقاعدة ٢٥
يذكر اسم من يرثيه منذ البيت الأول ٢٥
لمحة عن قصائد الجارم الطوال ٢٥
طول القصيدة وازى طول قصيدته في تحية النحاس ٢٦
الشاعر يسأل عينه أن تجود بالدمع ٢٦
السياق التاريخي ٢٦
لو أعدنا ترتيب أبيات القصيدة لخرجنا منها بقصيدة أخرى ٢٦
أشجع الرجال يوم النضال ٢٧
وصف محمد محمود بأنه خالدي العزم ٢٧
الخالق يعطي النفوس بمقدار جوهرها ٢٨
دلال العلا كدلال الفاتنات ٢٩
تشبيهات جميلة لكنها خطرة الدلالة ٢٩
ملامح زعامة محمد محمود ٣٠
قلقه على مستقبل مصر ٣٠
نشأة متميزة ٣١
الفرق بين العزة و الكبر ٣١
المهابة والذكاء والترفع ٣٢
العود يبكي لها كما تبكي هي عليه ٣٢
مناقب محمد محمود ٣٢
الخلود والهمة والبطولة ٣٣

المعين الذي استقى منه الجارم نهايات متميزة لأبيات قصائده ٣٣
الباب الثاني مدائح الأسرة العلوية ٣٥
الفصل الرابع قصيدة الشاعر الجارم في رثاء الملك فؤاد ٣٥
ما يقترن بالحدث الجلل ٣٥
فزع مصر ٣٥
حزن الجماهير بالقلب والجلال والخشوع ٣٦
الدوحة الظليلة التي تشيع السلام ٣٦
الملك كان فرداً يمثل عصراً ٣٧
رفع الشَّرقُ رأسَه بِفُؤَادٍ ٣٧
مصر كعبة وفود العلم ٣٧
الهمة والعزم والحسم ٣٨
صلادة لا تتأثر بالشوك ٣٨
الهداية والقيادة ٣٩
الغلاف الحامي والصمام الباقي ٣٩
رحمة الله هي التي أعدته ٣٩
إِنّما النَّاسُ بالملوكِ ٤٠
كان حازما في كل شيء ٤٠
وصف الموت وحكمه ٤٠
حتمية الموت و الدمع ٤١
كل مهد يصير لحدا ٤١
يشبه مدحه للملك بقلادة ٤١
الأمل في الابن الملك ٤٢
المليك المسجى والمليك المفدى ٤٢
الفصل الخامس ٤٣
قصيدة إسماعيل العظيم للشاعر على الجارم ٤٣
القصيدة تمدح الملكين فؤاد وفاروق أيضا ٤٣
البدء بوصف العظمة نفسها ٤٣
الكلمات المفردة في بداية الأبيات الستة الأولى ٤٤
معنى خلود الذكرى ٤٤
يضمّن شعر رابعة مع اختلاف المناسبة ٤٤
الوثب فوق الزمان ٤٥
مصر لبت دعوة إسماعيل وهمته ٤٥
مصر رأت في إسماعيل حاكماً لا نظير له ٤٥

العبقري لا يخضع لحسابات الأنصبة ٤٦
يذكّر الخديو بافتتاح قناة السويس ٤٦
الشاعر يقدم حسابا عقليا مختلفا ٤٧
مدح فاروق في زيارته للأراضي المقدسة ٤٨

الفصل السادس ٤٩

قصيدة الشاعر الجارم في مئوية إبراهيم باشا ٤٩

الطموح والعزم ٤٩
من ذا حقق ما حققه إبراهيم باشا من البطولة؟ ٥٠
إبراهيم باشا و نابليون ٥٠
معركة نصيبين ٥١
أيدعى سليل الشرق للشرق غاصبا ؟ ٥١
أعداؤه انتصروا عليه بالدهاء لا بالسيف ٥٢
حامي القبلتين : اللقب الذي منحه الجارم لإبراهيم باشا فأحياه ٥٢
يتوجه زعيما للقومية العربية ٥٢
أفضل أبيات يمكن أن يتخذها زعيم قومي عربي ٥٢
إبراهيم باشا و حفيده الملك فاروق ٥٣

الفصل السابع ٥٤

قصيدة الشاعر أحمد الكاشف في مديح السلطان عبد الحميد ٥٤

محنته مع البصاصين وتحديد إقامته ٥٤
في عيد جلوس السلطان ٥٤
مهابة الجانب وسلامة الحدود ٥٥
انحيازه للديكتاتورية ٥٥
السلطان عبد الحميد لا يعمل إلا من أجل الدين ٥٦
الدولة العثمانية التوازن بين القوى ٥٦
العثمانيون حققوا الاستقرار والسلام ٥٦
جمال المحيا واستنارة الوجه ٥٧
الأرض تختال، والوفود تزدحم، والقلوب تشتاق ٥٧
الثناء على العثمانيين وجهادهم ٥٨

الباب الثالث : الرحلات ٥٩

الفصل الثامن رحلات الأستاذ محمد ثابت ٥٩

الذي علّمنا أدب الرحلات ٥٩

الطابع الغالب على رحلاته المكتوبة ٥٩

الأجيال اللاحقة بأستاذنا ٥٩
موجز سيرة حياته ٦٠
يكتب الرحلات من أجل التربية بمعناها الواسع ٦٠
الإعجاب بتقدم اليابان والخوف من مستقبل كالصين ٦١
دراسة الشعوب ٦١
الرحلات مرحلة متقدمة من دراسة الجغرافيا و السياسة ٦٢
اهتمامه بالجغرافيا السياسية بصورة واضحة ٦٢
يجيد تقديم التاريخ السياسي ٦٣
مدينة عدن واحتلالها القائم على فكرة التربص ٦٣
قائمة موجزة لكتب الرحالة الأستاذ محمد ثابت ٦٣
ثناء عميد الجغرافيين المبكر على جهده ٦٤
تصوير الدكتور محمد عوض لقيمة جهده الفذ ٦٥
ينتقده في أن عنايته بالمعلومات أكثر من عنايته بالانطباعات ٦٥
الدكتور محمد عوض محمد يوجه نصحه له ٦٦
الدكتور محمد عوض محمد يقدم حلا عمليا جميلا ٦٧
عادات الشعوب و تقاليدها الغريبة ٦٧
الزواج المبكر عند الهندوس واجب ٦٨
يصوغ وصفه بلغة صادقة ودقيقة ورصينة ٦٨
يمضغون عشبا أخضر ٦٨
الركشا: المطية الرئيسية ٦٩
زيارة المعبدين ٦٩
صخرة لافينيا ٦٩
عقم النساء في الهند ٧٠
يهبون المولود القادم للآلهة ٧٠
الزوج إله الزوجة في الدين البرهمي ٧٠
وصف دقيق للبؤس الذي تتعرض له عملية الولادة ٧١
تكحيل عيون الوالدة إذا ماتت ٧١
أيقونة الفن الإسلامي في تاج محل ٧٢
انبهاره بالآثار الجميلة ٧٢
المهندس راعى المنظور في كتابته لآيات الذكر الحكيم ٧٢
انطباعاته الحسية في وصف قبة تاج محل ٧٣
تاج محل بلغة الأرقام والحسابات المادية ٧٣
صدى مشاهداته لظاهرة عبادة البقر ٧٤
تقديس خمسة منتجات في البقرة ٧٤
يعدوننا أنجاسا لأننا نأكل لحم البقر ٧٤
تجربته الشخصية مع ما جلبه له أكل اللحم من فقدان تقديرهم ٧٥

يهملون إطعام البقر على قداسته ٧٥
المشاحنات بسبب ذبح العجول ٧٥
قسوة الهنود جميعا في معاملة ذلك الحيوان المقدس ٧٦
الملايو جنة الدنيا ، وطوكيو تتفوق على أوربا ٧٦
البوليس المتحضر ٧٦
قصر الإمبراطور الياباني ٧٧
تقديس الإمبراطور ٧٧
انبهاره بمستوى الفندقة اليابانية ٧٨
شارع جنزا ٧٨
نفائس الصناعات اليابانية الصغيرة ٧٨
معنى الأسماء الوطنية للبلاد التي زارها ٧٩
قسوة فكرة الثأر عند اليابانيين ٧٩
وصف واقعة انتحار الأمير تاكي أمام جمع من الأوروبيين ٧٩
رأيه في الطابع القاسي لتنفيذ الثأر ٨٠
اليابانيون رفضوا فكرة إلغاء الانتحار ٨٠

الفصل التاسع : اللواء إبراهيم رفعت باشا ٨١

صاحب أول موسوعة مصورة عن الحج والحجاز ٨١

وصل لرئاسة الحرس الخديوي ٨١
خلود ذكره بسبب كتابته لرحلات الحج ٨١
قيمة كتابه الموسوعي الفريد والمبكر ٨٢
كتابه سابق على كتاب البتانوني الذي صحب الخديو ٨٢
مزايا شخصيته المنضبطة والمحبة للعلم ٨٢
حرصه على التثبت من الوقائع التاريخية ٨٢
الخليفة عثمان بن عفان هو من أنشأ ميناء جدة ٨٣
نشأته و تدرجه العسكري ٨٣
قيادة حرس المحمل ٨٤
المعارك العسكرية التي حضرها في السودان ٨٤
النياشين التي حصل عليها ٨٤
علاقته برحلات الحج ٨٥
ذكرياته عن يوم وقفة عرفة ٨٥
رمي الجمرات ٨٥
أسعار الأضاحي في موسم الحج ٨٥
وصف جدة و سكان جدة ٨٥
وصف ساحل جدة و مرافقها ٨٦

وصف غسل الكعبة ٨٦
صلاته في الكعبة ٨٦
كسوة الكعبة ٨٧
الاحتفال بالكسوة ٨٧
نقل الكسوة علي أكتاف الحمالين ٨٧
التقاء مساري الكسوة بالقرب من النحاسين ٨٨
المحمل في جدة ٨٨
تاريخ المحمل ٨٨
السيوطي يقول بأن الحجاج هو من أحدث المحمل ٨٨
زيارته لشريف مكة ٨٩
التِكِيَّة المصرية في مكة و التكية المصرية في المدينة ٨٩
رفع تقريرًا مصورًا للخديو لزيادة مقررات التكية ٨٩
التقرير المالي عن ميزانية موكب الحج ٩٠
قصة إلغاء الحج الفردي ٩٠
كيف نظمت الحكومة المصرية الحج ٩٠
وفاته ٩٠

الفصل العاشر رحلات الأمير محمد علي توفيق ٩١

ولي العهد الذواقة الذي ضاع ذكره و بقي قصره ٩١

هوايته للعمارة الإسلامية و للنباتات النادرة ٩١
هوايته للرحلات و الكتابة عنها ٩٢
حياته العائلية ٩٢
مواقفه السياسية ٩٢
مقدمة مجلة البيان عن تحطيم الأمير لصورة الارستقراطية السجينة ٩٣
فلسفة مجلة البيان في وصف جدوى التباين في الثروة ٩٣
المجلة تمتدح بعض الأمراء لعملهم بعقولهم ٩٤
نبل الروح ونبل الدم ٩٤
توظيف الأمير محمد علي توفيق علمه و ماله للارتحال المفيد ٩٤
الأمير يعرف قيمة السفر في ترقية حال الأمة ٩٥
تصوير لقاء المجلة مع الأمير في قصره ٩٥
وصف مجلة البيان لكتاب رحلة الأمير ٩٦
ثناء عثمان مرتضي باشا على ما سجله الأمير عن رحلته ٩٦
حديث الأمير عن استنتاجاته لأصول الهنود الأمريكيين ٩٧
زيارة منشوريا ومقارنتي سكانها بأولئك الهنود الأمريكيين ٩٧
فقرات من خطبة الأمير في الاتحاد السوري في نيويورك ٩٨

يتحدث عن انحيازه للآداب الشرقية، والأخلاق الإسلامية ٩٨
الأمير يستعرض التطور الدلالي لكلمة الحرية ٩٨
عثمان مرتضى يستعرض رأي الأمير في الدين والمدنية ٩٩
مديح النبي عليه الصلاة والسلام ٩٩
اعتزاز كتاب رحلة الأمير بروح الإسلام ١٠٠
سمو العلاقات الإنسانية في الإسلام ١٠٠
اعتقاده أن نهضة الغرب لم تحدث الا بعد اتصاله بالشرق الإسلامي ١٠١
طريق الحضارة واحد ١٠١
تفسيره لسبب تأخر الشرق ١٠٢
المصنوعات و المخترعات أيقظت الشرق من نومه ١٠٢
حياة الأمير بعد ١٩٥٢ ..... ١٠٣
وفاته ١٠٣

Prof. Mohamed El Gawady

ISIN 0000 0001 2122 604X

Aaesthetics of Poets & Travelers

In History Writing

1805 - 1952

دار الروضة
للطباعة والنشر والتوزيع

يرنو هذا الكتاب إلى أن يستعرض صورتين من الصور المهمة في تسجيل الانطباعات العقلية والنفسية عن وقائع التاريخ التي يعيشها صاحب الموهبة ويرى أن من واجبه أو أن من حقه أن يسجل رؤيته لها لاجئا إلى طريقة من طرق التعبير القادرة على نقل مشاعره بالتعبير أو قدراته في التصوير إذ أن هذين الميدانين يرتبطان بآفاق لا نهائية التفسير من سيكولوجية الإبداع الفني من ناحية، ومن جدلية التاريخ مع الفن والأدب من ناحية أخرى ، لكننا نحاول أن نمس هاتين المنطقتين مسا رقيقاً يشجع على النظر بعين الاهتمام وبذائقة التأمل إلى ما تمثله متعة النصوص الشعرية، وذكريات الرحلات من مشروعات واعدة بمصادر ثرية لكتابة التاريخ على نحو ما عاشه معاصروه بعيداً عن طريقة التسجيل الحرفي ، وبعيداً أيضاً عن طريقة التصوير المنهجي. وقد آثرنا أن نأخذ عينة ذات ملامح معينة ومحددة سلفا على نحو ما تقول لغة العلم ، فاخترنا ست قصائد للشاعر علي الجارم ثلاثا منها في الحديث عن الزعماء، وثلاثا منها في الحديث عن الملوك واخترنا قصيدة سابعة للشاعر أحمد الكاشف في مدح السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ، و اخترنا ثلاثة نماذج للرحلات في أسلوبها القديم في أخريات القرن التاسع عشر و أول القرن العشرين ، تمثل أول هذه النماذج في بعض كتابات الأستاذ محمد ثابت رائد أدب الرحلات ، وتمثل ثانيها في أول رحلة مصورة عن الحج والأماكن المقدسة وهي الرحلة التي سجلها إبراهيم باشا رفعت بالفوتوجرافيا في كتابه الباهر والمبهر في زمانه. وتمثل ثالثها فيما رواه ولي العد الشهير الأمير محمد علي توفيق عن رحلاته مستعينا بمن ساعده في كتابة ما كتبه.

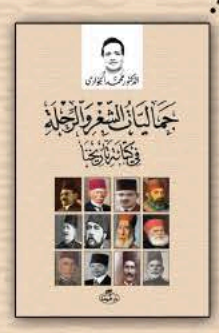

دار الروضة
للطباعة والنشر والتوزيع
9 786257 682176